الإمام الهادي إلى الحق

مجلة تصدر عن شبكة الثقلين الثقافية

عدد خاص بمناسبة
ذكرى قدوم الإمام الهادي عليه السلام
إلى اليمن

شبكة الثقلين الثقافية
Althaqaleen Cultural Network

١٤٤٤هـ | ٢٠٢٢م

الافتتاحية

الحمد لله ملهم البشر سبل الرشاد، وزارع بذور الخير في قلوب العباد، والصلاة والسلام على سيد الخلق وناشر الحق وعلى آله الطاهرين، وبعد:

من أقصى المدينة المنورة أقبل النور والهدى، وأهلت العدالة ترفل في ثياب الجد والعزيمة، وطلع من ثنايا قرية الرس نجم العدل والقسط؛ لتشرق على ربوع اليمن شمس الهداية والحق، فأنشدت جبالها وسهولها: (طلع البدر علينا ....).

تلك هي قصة قدوم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليهما السلام إلى ربوع اليمن بعد أن أجهد الظلمُ أهلَها، وعمّ القتلُ والقتال بلادَها، وعلا صوتُ التشرذم والتفرق كُلّ صوت، فخرجوا من بلادِهم إلى الرسِّ مستغيثين، وقصدوا مقام الإمام الهادي عليه السلام مستصرخين، بعد أن أيقنوا بصدق قولِ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض...»، فما كان من الإمام الهادي عليه السلام إلا أن أقبل مع وفد اليمنيين، ملبيًا دعوتهم؛ ليؤسس حكومة الإسلام الرشيدة، والدولة التي تطلّع إليها كلُّ إنسان؛ لتبلغ بعد ذلك شهرتها مشارق الأرض ومغاربها، حتى أقبل الناس إليها من شتّى البلدان، قاصدين التنعم بظلِّ هذه

الدولة الكريمة، والانضمام تحت لواء الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام.

ولو لم يرَ اليمنيون في دولة الإمام الهادي إلى الحق سيرة الراشدين، ونموذج الدولة العادلة لَمَا ظلُّوا لها أوفياء مخلصين؛ كلما مسّهم طائر من الظلم أو حلّت بهم عوارض الغزو هرعوا إلى سيرة الهادي، وطلبوا منهجه وقيادته في هِجَرِ الآل الأكرمين ومنازل العترة الميامين، واستمروا على ذلك الطلب لأمثاله على مدى القرون الطويلة، ولم تنقطع رغبتهم برحيل الإمام الهادي عليه السلام عن هذه الدنيا.

إنه الخلود الدائم والبقاء المستمر في كل تفاصيل حياة اليمنيين الذي خلّده الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بسيرة الحق، ومنهجية العدل، وسنن الهداية؛ فكلُّ من يشاهد اليمنيين من بعيد، وهم مختلفون عن العالمين في سِمتهم وسخنتهم وهديهم ورحمتهم ورجولتهم - يتذكر يحيى بن الحسين زارع تلك البذور الطيبة.

إنها ليست سيرة ثائر عظيم فحسب، ولا هي حياة فيلسوف قارئ للواقع فقط، ولا هي ظروف آنية ومتغيرات حينية ساعدته على صناعة ذلك الواقع والتاريخ، بل هي حياة عبد مخلص مؤمن، وعالم منقطع النظير، وطاهر كريم عاش في أعظم البيوت، وانتقل في أطهر الأَرُومَات، وعارف خبر متغيرات الحياة، وفهم الماضي والمستقبل والحاضر بعقلية اللبيب، وقرأ الحضارات واستغرق في فهم الطبائع والبيئات، وامتلك مؤهلات القيادة الروحية والدينية والدنيوية بكل جدارة واقتدار.

وحتى لا نغرق في المقدمات نترك القارئ الكريم ليطالع من سيرة هذا الإمام العظيم ما سهّل الله به بعد عناء وجهد وبحث وتنقيب مع قلة المتاع وقصر الباع في هذا المجال، غير أننا نأمل أن نكون قد وُفِقنا في تقديم مادة جيدة تستفيد منها الأمة، وخاصة ونحن نعيش في عصر انعدمت فيه القدوات القيادية، ورضي السواد الأعظم تحت ضغط الثقافات ووسائل التواصل والاتصال والعولمة المقيتة بكُلّ غث ونتن وسامج.

فهذه جهود متواضعة حاولنا من خلالها أن نفتح نوافذ النور في عتمة الحداثة، وأن نشد انتباه الأجيال إلى قادات وقدوات طواها النسيان برهة من الزمان، لكنه ما استطاع أن يلغيها من النفوس، وما استطاع لها محوًا، وكأنها هي والفطرة سِيّان.

فإليكم سادتي القراء هذه الصفحات المشرقة، متمنين لكم أن تعيشوا لحظات من المعرفة والفائدة واستلهام القدوات، سائلين الله تعالى أن نكون ممن يؤم الحق، ويتبع سنن الصدق، وينهج منهج الآل الميامين عملًا وعلمًا، وصلى الله على حبيب البشرية وقدوة العالمين محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته المنتجبين.

الإمام

الهادي

إلى الحق

الملف الشخصي

نسبه الشريف

الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم

بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أمُّه: هي أمُّ الحسن بنتُ الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن.

والده: هو الإمام الكبير الحسين بن القاسم الرسي؛ تتلمذ على أبيه الإمام القاسم الرسي، وكان يُعرَف بالعالِم والحافظ؛ وقد روى عنه الإمامُ الهادي عن جده كثيرًا من صنوف العلم كما هو جليٌّ في كتاب الأحكام؛ وكانت وفاته سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م.

جده: هو الإمام القاسم الرسي؛ أحد أئمة أهل البيت النبوي العظام، عرف الناسُ جميعًا فضلَه وعلمه وورعه؛ ولذا لُقِّبَ بنجم آل الرسول وترجمانِ الدين والعالِم، وكان إمامًا مبرِّزًا في شتّى العلوم، وكتبه من أعظم المؤلفات نفعًا وأغزرِها مادةً وفائدة، وقد شهد له بالعلم مختلفُ العلماء؛ فهذا جعفر بن حرب الهمذاني - أحد أئمة المعتزلة - يدخل عليه، ويناقشه في دقائقِ الكلام، فما إن يخرج حتى يقول لأصحابه: «أين كنا عن هذا الرجل؟ فواللّه ما رأيت مثله».

دعا الإمام القاسم الرسي إلى نفسه بالإمامة سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م، وتنقّل في بلدان مختلفة؛ فدخل مصر والسودان واليمن والعراق، وقاد معارضة شرسة ضدّ ظلم ملوك بني العباس، وحمل لواء الثورة صابرًا على الغربة متحملًا لصنوف البلاء من دون أن يستسلم أو يلين، فأرهب ملوك العباسيين، وقضّ مضاجعهم، وقد حاول الخليفة العباسي المأمون أن يتلطفه؛ ليأمن جانبه، فكلّف أحد العلويين للتوسط بينه وبين الإمام، وبذل على ذلك مالًا عظيمًا، وطلب منه أن يبدأهُ بكتاب أو يجيبه عن كتابه، فقال الإمام القاسم: «لا يراني الله أفعل ذلك أبدًا».

انتقل الإمام القاسم الرسي عليه السلام في آخر أيامه إلى منطقة الرس بالقرب من المدينة المنورة، وجعلها مهاجره، واستقر مع أولاده فيها حتى توفاه الله سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م.

إبراهيم طباطبا: هو إبراهيم بن إسماعيل الديباج، كان من فضلاء أهل البيت وعلمائهم، لُقّبَ بالغَمْرِ لجوده وكرمه، كما لُقّبَ بطباطبا؛ ومعناه «سيد السادات».. كان جامعًا لخصال الإمامة، ولذا خافه السلطانُ فحبسه سبعة عشر عامًا، ثم أُخرِج من السجن، وشهد معركة فخّ وجُرِح فيها.

إسماعيل الديباج: هو الإمام أبو الأئمة الكرام إسماعيل بن إبراهيم؛ وقد لُقّبَ بالديباج لجماله وحسن طلعته؛ وهو أحد الذين سجنهم أبو جعفر الدوانيقي في محبس الهاشمية مع الإمام الكامل عبدالله بن الحسن، روي في مقاتل الطالبيين عن عبد الله بن موسى، قال: سألت عبد الرحمن بن أبي الموالي، وكان مع بني الحسن بن الحسن في المطبق: كيف كان صبرُهم على ما هم فيه؟ قال: «كانوا صبراء، وكان فيهم رجلٌ مثل سبيكة الذهب، كلما أُوقد عليها النار ازدادت خلاصًا، وهو إسماعيل بن إبراهيم، كان كلّما اشتدّ عليه البلاءُ ازداد صبرًا».

إبراهيم الشِبْه: هو الإمام إبراهيم بن الحسن بن الحسن، عُرِف بإبراهيم الشِبْه لأنه كان يُشْبِه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أمُّه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام؛ توفي عليه السلام شهيدًا في سجن الخليفة العباسي أبي الدوانيق وهو ما

عرف بمحبس الهاشمية، وكان استشهاده في شهر ربيع الأول، سنة مائة وخمس وأربعين (١٤٥هـ)، وله سبع وستون سنة (٦٧ سنة).

الحسن الرضا: هو أبو محمد الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، لُقّبَ بالرضا؛ لاشتهاره بالنهج الصحيح والفضل الصريح، وكان ممن شَهِدَ واقعة كربلاء مع عمّه الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وعمره آنذاك ٢٠ سنة؛ فأصيب بثماني عشرة جراحة، حتى وقع وسط القتلى، فحمله خالُهُ أسامة بن خارجة الفزاري، وأخذه إلى الكوفة وداوى جراحه، وبقي عنده ثلاثة أشهر حتى عُوفِي، وانصرف إلى المدينة.

ثم دسّ له الحاكم الأموي الوليد بن عبدالملك السمّ، فمات منه، وله من العمر ثمانٍ أو سبعٍ وثلاثون سنة، ودفن في البقيع.

الإمام الحسن السبط: هو ريحانة المصطفى، وسيد شباب أهل الجنة؛ أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

وُلِدَ عليه السلام بالمدينة المنورة، في النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة، بعد غزوة أحد؛ وردت في فضله عدة أحاديث نبوية؛ منها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم إنّي أُحبُه فأحبّه وأحبّ من يحبه)؛ وقوله: (إنّ ابني هذا سيدٌ، ومن أحبّني فلْيُحبّ هذا في حجري)، وقوله: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)؛ وقوله: (الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا).

كان مقتلُه عليه السلام بتدبير من معاوية بن أبي سفيان كافأه الله تعالى؛ حيث أغرى زوجة الإمام «جعدة بنت الأشعث» بوضع السُمّ في طعام الإمام، وتعهّدَ لها بمائة ألف درهم، وأن يزوجها من ولده يزيد، فسقت الإمامَ الحسن السمّ؛ فلمّا حضره الموتُ، قال: «لقد سُقيت السمّ ثلاث مرات، ما منهن بلغت منّي ما بلغت هذه، لقد تقطعت كبدي».

كان استشهاده عليه السلام في المدينة المنورة سنة ٥٠هـ، وله من العمر ٤٦ سنة.

روي عن عمر بن بشر الهمداني أنه قال: قلت لأبي إسحاق: متى ذَلّ الناس؟ قال: حين مات الحسن بن علي، وادُّعي زياد، وقُتل حجر بن عدي.

مولد الإمام الهادي

وُلِدَ الإمام الهادي عليه السلام في قرية الرسّ، سنة ٢٤٥هـ، وحُمِلَ إلى جده الإمام القاسم عليه السلام، فوضعه في حجره المبارك، وعوّذه ودعا له، ثم قال لابنه: «ما سمّيْتَه؟ قال: «يحيى»؛ وكان للحسين أخٌ يسمى يحيى توفي قبل ذلك، فبكى الإمام القاسم عليه السلام حين ذكره؛ فقال: «والله هو يحيى صاحب اليمن».

وإنما قال ذلك لأخبار رويت بذكره، وإلى ذلك أشار الإمام الداعي يحيى بن المحسن بقوله:

وأعلن القاسم بالبشارة بقائم فيه له أمارة
من الهدى والعلم والطهارة قد بث فيه المصطفى أخباره
بفضله وأوجب انتظاره

ومن الأخبار التي جاءت بذكره ما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه أشار بيده إلى اليمن، وقال: (سيخرج رجل من ولدي في هذه الجهة اسمه يحيى الهادي يُحيي الله به الدين).

وروي عن جده أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (ما من فتنة إلا وأنا أعرف سائقها وناعقها، ثم ذكر فتنة بين الثمانين والمائتين)؛ قال: (فيخرج رجل من عترتي اسمه اسم نبي، يميز بين الحق والباطل، ويؤلف الله قلوبَ المؤمنين على يديه).

وكان بين ولادة الهادي وبين موت جده القاسم عليهما السلام سنة واحدة.

أهل بيتي كالنجوم كلما أفل نجم طلع نجم

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

صفته الخِلْقية

كان الإمام الهادي عليه السلام أسديًّا، أنجل العينين، واسع الساعدين مع غلظ فيهما، بعيد ما بين المنكبين والصدر، خفيف الساقين والعجز؛ كأنّه الأسد، كما أنه كان قويًّا ضخم الجسد من غير سمن بل كان وسطًا من الرجال، ولم يُطِقْهُ من الدواب سوى القوي منها، ومنها فرسه «أبو الحماحم».

اشتهر الإمام الهادي عليه السلام بقوته الجسدية وقد حُكِيتْ في ذلك قصص، ومنها أنه كان في حال صباه يدخل السوق، فيقول: ما طعامُكم هذا؟ فيقولون: حنطة؛ فيُدخل يده في الوعاء، فيأخذ منه في كفه ويطحنه بيده، ثم يُخرجه فيقول: هذا دقيق.

وكان يأخذ الدينار فيؤثر في سكّته بأصبعه ويمحوها؛ وقد روي أن طبيبًا نصرانيًّا كان يختلف إلى أبيه الحسين في المدينة على حمار له يعالجه من مرض أصابه، فنزل عن الحمار يومًا وتركه على الباب، فأخذ الإمام الهادي - وهو غلام صغير- الحمارَ وأصعده إلى السطح، فلما خرج الطبيب لم يجدِ الحمار، فقيل له: صعد به يحيى السطح، فسأله أن ينزله، فأنزله وقد دميت بنانه، فبلغ ذلك أباه فزجره، لأنه خاف عليه أن ترميه العيون.

ويُحكى من قوته أنه كان يأخذ قوائمَ البعير المسنِّ القوي، فلا يقدر البعيرُ على النهوض، وكان يضرب بسيفه عنق البعير البازل الغليظ (البازل من الإبل الذي طلعت نابه) فيبينه عن جسده.

أهل بيتي أمان لأهل الأرض
كما أن النجوم أمان لأهل السماء
فويل لمن خذلهم وعاندهم

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

أولاده عليه السلام

تزوج الإمامُ الهادي عليه السلام ابنة عمّه فاطمة بنت الحسن بن القاسم، وأنْجَبَتْ له ولدين وبنتين؛ وهم: محمد المرتضى، وأحمد الناصر، وفاطمة، وزينب، ثُمّ تزوج امرأة صنعانية فأنجبت ولده الحسن.

أولاده

محمد المرتضى

وُلِـدَ محمد «المرتضى» في الرسّ، ولعلّه في سـنة ٢٦٨هـ، وتلقّى العلم على يدي والده حتى صار إمامًا في أصول العلم وفروعه؛ ومؤلفاته الغزيرة تشهد له بذلك.

شـارك مـع والده في معاركه، وكان معه في جميع أمـوره؛ وبعد وفاة أبيه بايعه الناس إمامًا سنة ٢٩٨هـ، وتلقّبَ بالمرتضى لدين الله، وكانت له وقعاتٌ مع القرامطة مشهورة، لكنه بعد ذلك فضّل الاعتزال عن الولاية لمّا شـاهد تغير أحوال الناس وفسادهم؛ فخطب فيهم خطبة بليغة بيّن فيها أسباب اعتزاله، وتوفي عليه السلام سنة ٣١٠هـ.

أحمد الناصر

وُلِدَ أحمد «الناصر» بعد أخيه المرتضى، ولعله في سنة ٢٧٠هـ، وتعلم على يدي والده، حتى بلغَ مرتبةً عظيمةً في العلم، وله مؤلفاتٌ عديدة ونافعة.

بويع عليه السلام بالإمامة بعد اعتزال أخيه سنة ٣٠١هـ، ولعل وفاتَه كانت سنة ٣٢٢هـ.

الحسن

أمّا الحسـن فقد وُلِدَ سـنة ٢٩٠هـ، وتربّى في حجر والده، ثم انتقـل إلى رحاب أخويه ورعايتهمـا؛ وكان عالمًا جليلًا، كما كان أحد أعضاد أخيه الناصر، واستشـهد وهو يقاتل معه في معركة نجران في ٥ جمادى الآخرة ٣٢٢هـ.

نشأته المباركة

عاش الإمام الهادي طفولته في هجرة جده الإمام القاسم في جبل الرسِّ، حيثُ الهواء النقي والأجواء النظيفة والبيئة الصالحة؛ وهو ما انعكس على صحته وبنيته القوية، كما انعكس أيضًا على تعليمه؛ حيث جميع أهله معلمون وعلماء ومرشدون، فتعلّم منهم القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، ثم تلّقى عنهم سائر العلوم، وتشرب منهم معالي الأخلاق وكريم الخلال وتحمل المسئولية في إصلاح الأمة وتقويم اعوجاجها.

وكان لهذه النشأة المباركة أثرها الكبير على شخصيته، فقد أكسبته القوة والشجاعة والفصاحةَ وسلامةَ اللسان، وسلْمَتْهُ مما يصاحب سكان المدن من فساد النفوس واضطراب العقيدة وتذبذب الأفكار؛ فكان بذلك مثالًا أعلى وقدوة سامية للأمة الإسلامية.

تنقلات الإمام الهادي عليه السلام

يذهل المرء وهو يطالع سيرة أهل البيت عليهم السلام، وهم يطوون الأرض من مصر إلى اليمن، ومن المغرب الأقصى إلى بلاد العجم الهند والسند والجيل والديلم إلى غير ذلك من البلدان، ويتعجّبُ أكثر حين يجد أنهم لم يعودوا من رحلاتهم تلك بأيٍّ من مغانم الدنيا، ويظلُّ يتساءل: لِمَ كُلُّ تلك المعاناة؟!

فلا يجد سببًا لذلك إلا استشعارَهم لواجب المسئولية، وعزيمتَهم لحمل راية الثورة ضدّ الظالمين؛ دفاعًا عن حقوق المستضعفين، ولذلك رضوا بما عانوه من الغربة والتشريد، فظلُّوا دائمي البحث عن مكان يأمنون فيه من ملاحقة السلطات الظالمة التي لم يرضخوا لها، واستمروا ينقبون في الأمصار عن قلوبٍ طاهرة؛ ليزرعوا فيها بذرة الإيمان النقي، وروح الحق.

رحل الإمام يحيى بن عبدالله الكامل عليه السلام إلى كثير من أصقاع العالم الإسلامي، وتوجه أخوه إدريس عليه السلام إلى بلاد المغرب؛ وقد أثمرت رحلته بظهور دولة الحق هناك؛ وكان للإمام القاسم الرسي عليه السلام جد الإمام الهادي النصيبُ الأوفر من التنقلات، فقد رحل إلى مصر والمغرب والحجاز واليمن والسودان وغيرها من البلدان.

ولذات الغاية، ولنفس المهمة سجل التاريخُ أن الإمام الهادي عليه السلام قَبْلَ قدومه إلى اليمن رحل إلى العراق، ثم انتقل إلى آمل (طهران)، ولكن هاتين الرحلتين كانتا سريعتين، ولم تسجل المصادر التاريخية التي بأيدينا عنها إلا روايتين:

> مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى فويل لمن خذلهم وعاندهم
>
> النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

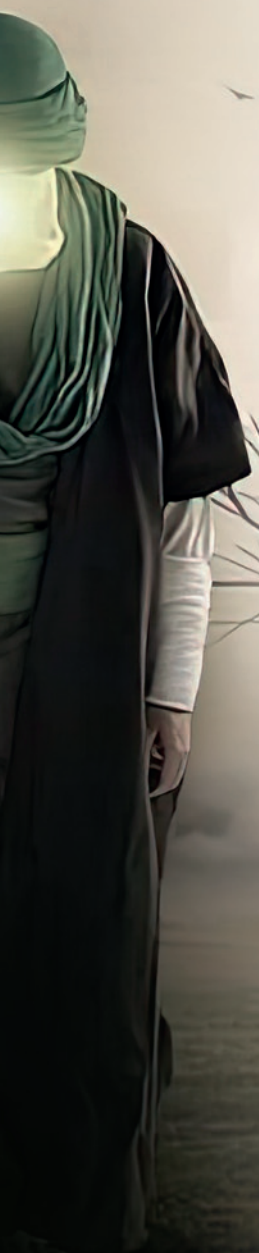

• رواية دخوله العراق

قال أبو العباس الحسني: «دخلت الرّيّ سنةَ ثلاثمائة واثنتين وعشرين وكنت ارتحلت إلى شيخ العلوية وعالمها أبي زيد عيسى بن محمد العلوي رحمه اللّه ـ من ولد زيد بن علي عليه السلام ـ وإلى غيره من ابن أبي حاتم وآخرين، وحضرت مجلس النظر لأبي بكر الخطاب فقيه الكوفيين وحافظهم، فجريت مع من حضر في مسائل النظر، فقال: ما قرابة ما بينكم وبين أصحاب اليمن من أولاد يحيى بن الحسين وأولئك الأشراف؟ فقلت له: كان يحيى بن الحسين من أولاد إبراهيم بن الحسن بن الحسن، ونحن من ولد داود بن الحسن بن الحسن، وداود وإبراهيم أخوان، فنحن وهم بنو الأعمام، ولكن أم يحيى بن الحسين كانت عمة جدي، قال: علمت أن هذا عن أصل، وكان يعجبه كلامي.

ثم أنشأ يحدث، قال: كنا عند علي بن موسى القمّي فَذُكِرَ له خروج علوي باليمن يدعي الإمامة، فقال: حسني أم حسيني؟، فقيل: بل حسني، ويقال: إن له دون أربعين سنة، فقال: هو ذاك الفتى، هو ذاك الفتى؛ مرتين، فقلنا: من هو؟ قال: كنا في مجلس أبي خازم القاضي يوم الجمعة، فدخل شاب له رَوَاءٌ ومنظر، فأخذته العيون ومَكّنُوه؛ فجلس في غمار النّاس، فما جرت مسألة إلا خاض فيها وذكر ما يختاره منها ويحتج ويناظر، فجعلوا يعتذرون إليه من التقصير، ثم أسرع النهوض فقيل لأبي خازم: هذا رجل من أهل الشرف من ولد الحسن بن علي عليه السلام، فقال النّاس: قد علمنا أن ما خالط قلوبنا من هيبته لمنزلة له؛ فاجتهدنا أن نعرف مكانه وسألنا عنه فلم نقدر عليه.

فلما كانت الجمعة الثانية اجتمع النّاس وكثروا شوقًا إلى كلامه ورجاء أن يعاودهم؛ فلم يحضر، فتعرفنا حاله فإذا ذلك تخوف داخله من السلطان، فكان أبو خازم يقول: إن يكن من هؤلاء أحد يكون منه أمر فهذا..

ثم عاود علي بن موسى فقال: ألم أقل: إن العلويّ هو ذاك الفتى، قد استعلمت فإذا هو ذاك بعينه.

• رواية دخوله آمل (طهران)

قال أبو العباس الحسني: حدثني جدي رحمه الله: أن يحيى بن الحسين عليه السلام قَدِمَ آمل قبل ظهوره، والناصر رضي الله عنه مع محمد بن زيد بجرجان، ومعه أبوه وبعض عمومته والموالي، فنزلوا حُجْرةً بِخَانِ العَلَاء- وأشار إليها ونحن نجتاز بالخان - يومًا.

قال: ولم أسمع بأنه بلغ من تعظيم بشرٍ لإنسان ما كان من تعظيم أبيه وعمومته له، ولم يكونوا يخاطبونه إلا بالإمام، قال: وامتلأ الخان بالناس حتى كاد السطح يسقط وعلا صيته، وكتب إليه الحسن بن هشام مِنْ سارّية - وكان على وزارة محمد بن زيد- بأنّ ما يجري يوحش ابن عمك؛ فقال: ما جئنا ننازعكم أمركم، ولكن ذُكِر لنا أن لنا في هذه البلدة شيعة وأهلا؛ فقلنا: عسى الله أن يفيدهم منا.. وخرجوا مسرعين وثيابهم عند القَصّار وخفافهم عند الإسكاف ما استرجعوها.

قال: وحملنا إليهم من منزلنا لحمًا نيئًا ودجاجًا وشيئًا مما يصطبغ به من حصرم وغيره، فتناولوا إلا اللُحمان فإنها ردت إلينا كهيئتها، فسألنا الموالي عن سبب ردها، فقالوا: إنّه يقول: بلغني أن الغالب على أهل هذا البلد التشبيه والجبر، فلم آمن أن يكون من ذبائحهم، فقد سمعت أن أهلنا بهذا البلد لا يتوقون ذبائحهم.

والظاهر أن الحسن بن هشام كتب ذلك الكتاب إلى الإمام الهادي من تلقاء نفسه، وأن الإمام الداعي محمد بن زيد لم يعلم به، فضلًا عن توجيهه له؛ لأنه جاء في الرواية أن الداعي كان في ذلك الوقت بجرجان.

ومن خلال هاتين الروايتين نستطيع القول: إن الإمام الهادي عاش شطر حياته الأول في الحجاز، كما أنه دخل العراق وآمل ولم تطل إقامته فيهما، ثم عاش بقية حياته في اليمن، فكان كآبائه متنقلًا بين البلدان سعيًا لإقامة دولة الحق وإرشاد الناس وهدايتهم.

يـا أهـل اليمـن لكـم علـيّ ثـلاث، أن أحكـم فيكـم بكتـاب الله وسـنة رسـول صلـى الله عليـه وآلـه وسـلم وأن أقدمكـم عنـد العطـاء وأتقدمكـم عنـد اللقـاء ولـي عليكـم النصـح والطاعـة مـا أطعـت الله. والله لإن أطعتمونـي لا فقدتـم من رسـول الله إلا شخـصـه إن شـاء الله

الإمـام الهـادي إلى الحـق علـيه السـلام

الإمام

الهادي

إلى الحق

سيرة علي

سيرة علي

في رحاب الهادي إلى الحقّ عليه السلام يعجز اللسان، ولا يفي المقام، وتبقى الكلمات تقدّم رجلًا وتؤخّر أخرى، لا تشـــككًا وارتيابًا، ولكن هيبةً ورهبة وإجلالًا؛ كيف لا؟! وهي أمام روضةٍ غنّاء، وجَنّة ذات أفنان، قد حوت بديعًا يجِلُّ وصفُه، وبهاءً يصعب نيلُه.

هنا حيثُ نطقت الأخلاق، وفاح أريجُها، وطابت الأرومات (جمع أرومة وهي أصل الشجرة واستعملت للحسب)، وتباهت فروعُها، في مقام الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام، سيد الخُلُق، وممثّل الفضائل، مَن نبت من بذرة الدين، ونَهَلَ من معين المتقين، وتربّى في رحاب الطاهرين، فنشـــأ على الإيمان برًّا تقيًّا، متشـــحًا بمكارم الصفات، وعظيم الســـجايا، قد تشرّبَ العلم، ونطق بالهدى، واتشح بالنور الذي لا يبلى.

ذلك هـــو الهادي إلى الحق ﴿أَفَمَـــنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَـــقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

لقـــد جمع عليه الســـلام الخصـــال الحميدة، والمناقب الكريمة، فكان إمامًا ســـابقًا فاضلًا فقيهًا عالمًا بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وســـلم عامـــلاً بهما، شـــجاعًا مجاهدًا ورعًا زاهـــدًا ناصحًا جـــوادًا مبرّزًا فـــي جميع الخصال المحمودة المقربة إلى الله جل جلاله.

• لين الجانب

أن تجِــدَ إمامًا تدينُ له الأصقاع، وتخضع له البلدان، ويبلغ خبرُه ودولتُه مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، ثم تجده يخالطُ الناس، ويمشي في الأسواق، ويعود المرضى لا يفرّق بين الأحرار والعبيد، فأنت بلا شك في حضرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحســين عليه الســلام؛ وفي ســيرته وتعامله يتجلى الفــرق بين أئمة الحق وأئمة الجور الذين اتخذوا مال اللّه دولًا، وعبيده خولًا، وشتّان ما بين الفريقين.

وليــس ذلك مبالغــة أو مزايدة أو انتصارًا للهادي عليه الســلام، بــل هو عين الحقيقة، وشــهادة التاريخ، فهو من جسّــد بتعامله مع الناس خُلُقَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وتمثّل آدابه، وسار بســيرته، فكلُّ مسكين يستطيع أن يصل إليه، وكلُّ ذي حاجة لا يصعب عليه إبلاغُه حاجته، فهو مَلِك بغير حُجّاب، وسلطانٌ لا تحول بينه وبين الرعية أستار ولا أبواب، يأكل كما يأكل الفقراء أو أقلّ من ذلك، ويمشــي بين الناس كأنّه واحدٌ منهم دونَ حشمٍ ولا جنود، ومن غير تكبر ولا تجبر.

لقد جعل عليه السلام التواضعَ دثاره، فإذا كان في مجلسِه أدنى إليــه الضعيفَ والفقيرَ والصبي، ويأمــر بذلك، وإذا خرج من منزله للصلاة أو لغيرها سلّم على جميع من يمرُّ به من شريف أو دنيّ أوفقير أو غني أو عبدٍ أو صبي، وكذلك كان جدُّه رســول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

وقد رُوي أنّه خرج عليه السلام ذاتَ مرة من المسجد بعد أن صلّى بالناس، فاجتمع حوله جماعةٌ من المساكين فصاحوا، فوقف ساعة معهم ثم أمر لهم بشيء، ففُرّقَ بينهم.

ليس هذا وحســب، بل كان عليه الســلام يبحث عن أهل الفاقة والحاجة، ويأمر من ينادي في الناس: أين الفقراء؟ أين المســاكين؟ أين ابن السبيل؟ أين من له حاجة؟ هل من سائل فيُعطى أو من طالبٍ فتُقضى حاجته؟، فيقضي عليه السلام لمن وَجَدَ منهم حاجاتِهم.

وهكذا شمل ذلك الخُلق الرفيع سائر أفعال الهادي عليه السلام وأقواله، حتى كأنه جرى في دمه الطاهر، فهو من يعود الجرحى والمرضى ويمرّضهم بنفسه، وهو المُعينُ للمظلوم المنتصف له، وفي الكرم هو الجواد بمعروفه، الباذل ما في يده، الذي يرى الضيافة من أسرِّ الأشياء إليه، ويتعهد ضيوفه بنفسه، حتى رُوي أنه كان إذا وُضِعتْ مائدتُه لم يبقَ خَلْقٌ ممّن يحضر في ذلك الوقت إلا دعاه إليها.

وقد روى محمد بن سعيد قال: رأيته يفتُّ الطعام للأيتام بيده ويثرده (يفته ويبله) بالسمن، ثم يقول: أَدْخِلُوهم. ثم ينظر؛ فمن كان منهم ضعيف المَأكَل قال: هذا مغبون؛ فيأكل مع المساكين ثم يعزل له، وكان لا يأكل طعامًا حتى يطعم المساكين منه، ثم يأكله بعد ذلك.

وروي أنه ذات مرة صلى العصر في المسجد فلما انصرف استقبلته امرأة فصاحت به: يا ابن رسول الله؛ فوقف، ودنت إليه فإذا هي عجوز، وأمسكت بثوبه، فزجرها بعض خدمه وانتهرها، فقال له الإمام الهادي عليه السلام : دعها.

فجعلت العجوز تكلّمه وتشكو إليه أنها مظلومة، وهو واقف معها حتى فرغت من كلامها، ثم صاح بأبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي أن يمضيَ معها، ويستقضي في الحق لها، فنفذ معها حتى أحضر خصمَها وقطع ما بينه وبينها.

وبهذا الخلق النبوي العظيم تمكّن الإمام الهادي عليه السلام من حرق المسافات التي وضعها حكام الجور بينهم وبين المحكومين، لدرجة أنّ الرعية تستطيع الوصول إليه في وقت متأخر من الليل، فيلبّيهم، وينظر في حاجاتهم برحابة صدر، دون تثاقل منه أو تهاون؛ ومن القصص في ذلك ما حكى مصّنف سيرته؛ قال: «رأيته ليلةً وقد جاء رجلٌ ضعيف في السَحَر يستعدي على قوم فدقّ الباب، فقال: مَنْ هذا يدقُّ الباب في هذا الوقت؟

فقال له رجل كان على الباب: هذا رَجُلٌ يستعدي، فقال: أدخلْه؛ فاستعدى؛ فوجّه الإمام معه في ذلك الوقت ثلاثة رجال يُحضرون معه خصومه، فقال لي: يا أبا جعفر، الحمد لله الذي خصّنا بنعمته وجَعَلَنا رحمةً على خلقه، هذا رجل يستعدي إلينا في هذا الوقت؛ لو كان واحدًا من هؤلاء الظلمة ما دنا إلى بابه في هذا الوقت مشتكٍ، ثم قال: ليس الإمام منّا من احتجب عن الضعيف في وقت حاجة ماسّة.

وبهذه البساطة وهذا التواضع تملّك الهادي عليه السلام القلوب، وأَنِسَ به القريبُ والبعيد، واطْمأنّ بحضرته جميعُ الخَلْق، وكان الشفيق على الرعية، الرفيق بهم، يُؤْثِرُهم على نفسه، ويُكْرِم نُزُلَهم، ويتلطف بهم، ويعرف قدرهم، ويوصيهم بالتراحم والتواصل، وينهاهم عن البغي والتحاسد.

الجانب العلمي

الهادي إلى الحقّ عليه السلام من أئمة الهدى وأعلام التقى، الذين أورثهم الله علم الكتاب وأودع في صدورهم فَهْمَ أسرار القرآن؛ ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾.

لقد كانت عِلْميّة الإمام الهادي بقدر عالميته، ولهذا لا نستطيع أن نقيس علم الإمام الهادي بعدد مروياته ولا بكراريس مؤلفاته فحسب؛ لأنه فوق هذا قد شمله الحديث النبوي الذي قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم اجعل العلم في عقبي وعقب عقبي) فهي دعوة نبوية ووراثة من ذي الخبير العليم.

عاش الإمام الهادي منذ صباه في خِضَمّ حلقات العلم، ومجالس الذكر، مقبلًا على الدرس، مواظبًا على النظر في الفقه، مثابرًا على ذلك، تحوطه أسرةٌ علويّة قد جعلت العلم زادها، فكل أفرادها بين أئمة وعلماء مجتهدين، فارتوى عليه السلام من علومهم، واقتبس من أنوارهم، حتى «بلغ من العلم مبلغًا يَخْتَارُ عنده ويُصَنِّفُ وله سبع عشرة سنة» كما حكاه ولده المرتضى عليهما السلام.

وكان بداية أخذه للعلم على يد والده الحسين بن القاسم وعمه محمد بن القاسم عليهما السلام؛ وقد رأى جميعُ أهل بيت القاسم الرسيّ في ذلك الوقت أن لهذا الفتى المُجدِّ شأنًا عظيمًا ومكانة عالية، وظلّتِ العيونُ تَرْمُقُه وهو يترقى في العلم من درجة إلى أخرى، حتى بلغ مرتبة الاجتهاد وهو في سِنٍّ مُبَكِّرة، وأصبح ممن يُشار إليه بالبنان، وبلغت شهرته مشارق البلدان ومغاربها، وصار مقدّمًا عند كبراء أهل البيت في عصره.

وقد شهد له عليه السلام بسِعَةِ العلم كِبارُ علماء المسلمين في مختلف الأقطار، كأبي حازم عالم أهل العراق، فحين قَدِمَ الهادي عليه السلام إلى العراق حَضَرَ مجلس أبي حازم، وجلس في غمار الناس، فلم تَعرِضْ مسألةٌ إلا خاض فيها، وناقش أدلتها، وسرد الحجج لرأيه فيها، فدُهِشَ الحضور لِمَا رأوا من براعته وتمكنه وسعة علمه، فجعلوا يعتذرون إليه من التقصير.

وكذلك لمّا خرج عليه السلام إلى (طبرستان) واستقرّ في (خان العلا) أَقْبَلَ إليه العلماءُ والفضلاء حتى امتلأ الخان وفاض بالناس، وليس ذلك إلا للمكانة العالية التي كان قد بلغها.

وقد رُوِي عن علي بن سليمان أنّه قال: حضرنا إملاء الناصر الحسن بن علي عليه السلام في مصلى آمل فجرى ذكر يحيى بن الحسين عليه السلام، فقال: بعض أهل الرأي ـ وأكثر ظني أنّه أبو عبد الله محمد بن عمرو الفقيه ـ : كان والله فقيهًا، قال: فضحك الناصر، وقال: كان ذاك من أئمة الهدى!!

ولو نظرنا إلى طلب أهل اليمن منه عليه السلام القدومَ إليهم لتخليصهم مما هم فيه من البلاء والفتن، فسنعرف أنهم لم يقصدوه إلا لاشتهار علمه، وذيوع صِيتِ فضلِهِ وعلوّ شأنه الآفاق.

وقد كان الإمام الهادي عليه السلام من أوعية العلم، متبحرًا في شتى الفنون، عارفًا بمختلف المذاهب والفرق، وقد سطر لنا التاريخ الكثير من الشهادات على أَلْسِنَةِ كبار العلماء، ومن أبرزهم: أبو بكر بن يعقوب عالم أهل الري وحافظهم، فإنه سُمِع يقول حين وَرَدَ على الهادي باليمن: «قد ضل فكري في هذا الرجل ـ يعني يحيى بن الحسين عليه السلام ـ فإني كنتُ لا أعترف لأحد بمثل حفظي لأصول أصحابنا، وأنا الآن إلى جنبه جَذَع، بينا أجاريه في الفقه وأحكي عن أصحابنا قولًا، إذ يقول: ليس هذا يا أبا بكر قولكم، فأُرَادُه، فيُخْرِجُ إليّ المسألة من كتبنا على ما حكى وادّعى، فقد صِرْتُ إذا ادّعى شيئًا عنّا أو عن غيرنا لا أطلب معه أثرًا.

وقد كان سريع البديهة ذا قدرة فائقة على المناظرة وقوة بالغة في إيراد الحجة، ومن شواهد ذلك أنه حين دخل صنعاء أراد علماءُ المجبرة مراجعته، فقالوا: ما تقول يا سيدنا في المعاصي؟ فقال: ومَنِ العاصي؟ فبقوا متحيرين في الفكر؛ لأنهم إنْ قالوا: العاصي هو الباري كفروا، وإن قالوا: العاصي من المخلوقين وافقوا كلام الهادي عليه السلام، فلمّا لم يجدوا جوابًا دخلوا في مذهبه بتسعة أحرف، وقال مناظرهم: غلبني بأوْجَز من كلامي.

وقد ترك الإمام عليه السلام تراثًا فكريًا ارتوى منه الأئمة والأعلام وخرّجوا عليه واعتمدوه إلى يومنا هذا، ومن مؤلفاته: (كتاب الأحكام)، و(المنتخب)، و(الفنون)، و(كتاب التوحيد)، و(كتاب القياس)، وغيرها.

قال الإمام أبو طالب في الإفادة: أمّا تقدُّمه في العلم فاشتهاره يغني عن تقصيه، ومَنْ أحَبّ أن يعرف تفضيله فلينظر في كتبه وأجوبته عن المسائل التي سُئِل عنها ووَرَدَت عليه من البلدان.

عبادته

كان الإمـــام الهادي عليه الســـلام كجده أمير المؤمنين علي بـــن أبي طالب كرم الله وجهه، والذي كان كما وصفه الشاعر:

هـــو البـــكاء فـــي المحـــراب ليلا ... هـــو الضّـــحَـــاك إنْ آنَ الـــضِـــرابُ

فبينمـــا تجـــدُ الإمامَ الهادي عليه الســـلام في ســـاحات الجهاد الفارسَ الشجاع الذي ترْتَعِدُ منه فرائـــص (جمع فريصـــة وهي لحمـــة بين الجنب والصدر والكتف ترتجف عند الخوف) الشجعان، والبطلَ المجرّب الذي تَجْبُنُ عند لقائه جحافل أهل الباطل، تجده في باحات العبادة العابدَ المتنسكَ الخاشع المتذلل بين يدي الله تعالى، محييً أكثر ليالـيه تهجدًا وصلاة وذكرًا لله جل وعلا.

والإمام الهادي كأئمة أهل البيت العظام؛ زين العابدين علي بن الحســـين وزيد عليهم الســـلام، الذين جعلوا كل نَفَسٍ وحركة في حياتهم عبادة لله تعالى، ويعتبرون العبادة متنفسًا لهم من كدر الحيـــاة، ولحظـــات وصل بينهم وبين معشـــوقهم سبحانه وتعالى.

حكى سليم - وكان يلي خدمة الإمام الهادي - فقال: كنتُ أتبعه حين يأخذ النّاس فراشهم في أكثر لياليه بالمصباح إلى بيت صغير في الدار كان يأوي إليه، فإذا دخله صرفني فأنصرف، فهجس ليلة بقلبي أن أحتبس، وأتيت على باب المسجد أنظر ما يصنع.

قال: فسهر عليه السلام الليل أجمع ركوعًا وسجودًا، وكنت أسمع وقعَ دموعه صلى اللّه عليه ونشيجًا في حلقه، فلمّا كان الصبح قُمْت فسمع حسي، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا؛ فقال: سليم؛ ما عجل بك في غير حينك؟! قلت: ما برحت البارحة جعلتُ فداك.

قال سليم: فرأيتُه اشتدّ ذلك عليه وحَرّج عليّ أن لا أحدث به في حياته أحدًا.

فأيُّ ملِك هذا الذي جعل الحبل ما بينه وبين خالقه جلّ وعلا موصولًا؟! فلم تلهه ولايته عن العبودية، ولم يشغل قلبَه النفوذُ ولا السلطانُ عن الارتباط الوثيق بمدبر الأمور؛ فما أحوجنا لمثل هذا الإمام العظيم، الذي يكون لنا خير قدوة في الطاعة للّه والخضوع والاستسلام له، ويحيي فينا الحبّ الإلهي الذي طالما افتقدناه.

• زهده وورعه

في شخصية الإمام الهادي عليه السلام يتجلى الزهد والورع في أبهى صورهما؛ كتجلي الشمس في الضحى، لا تحجبها غيوم، ولا يغطيها بجناحيه طائر؛ فهو كما قال عنه الإمام المؤيد باللّه عليه السلام: «فأما الزهدُ والورع فمما لا يحتاج إلى وصفه به؛ لظهور الحال فيه عند الخاص والعام، والموافق والمخالف، ولأنّ الزهدَ أمرٌ شامل لبيت القاسم بن إبراهيم عليه السلام، عامٌ في أولاده وأسباطه إلى يومنا هذا، لاسيما من لم يتَغَرّب منهم، ولم يختلط بأمراء هذه البلدان».

ولقد كان عليه السلام يجتزئ بالقليل من الطعام، حتى يَعْجَب من ذلك من يراه، فكيف لمن تُجمَع إليه الأموال من الخراج وغيرها أن يرضى بما لا يرضى به من لا يملك إلا القليل؟!

وقد بلغ عليه السلام من الزهد والورع ما جعله يترك ما يحل له فضلًا عن غيره، ويردد مع ذلك على مسامع الناس: «واللّه الذي لا إله إلا هو ما أكلتُ مما جبيت من اليمن شيئًا، ولا شربت منه الماء، إلا من شيء جئت به من الحجاز».

وهذا ورع شحيح؛ لأنه تعفف عن الحلال إذ كان يجوز له أن يتناول من الجزية وأخماس الغنائم.

وتراه عليه السلام يلبس ثياب الهيبة أو ثياب الحرب اضطرارًا لإبراز هيبة الدين، ويقول: «واللّه لو كنت بين مؤمنين ما لبست مثل هذا ولا هذا من لباسي، وما أشْتَهي إلا أنْ ألبس الغليظ من الثياب، ولو لبسته لاستخفّ الناس موضعي، فقد ميزت أمورهم فرأيتهم لا يطيعون إلا من كان عليه مثل هذا الثوب، ولكأنّ على جلدي من لباسه الشوك».

وليس ذلك الطبع فيما هو له فقط، بل يتجلى أيضًا في تشديده على أولاده فيما يخصُّ أموال بيت المال، ومن ذلك ما روي عن ابنه محمد عليه السلام أنه قال: «وجهت غلامًا لي إلى أبي يحيى بن الحسين أطلب منه قرطاسًا أكتب فيه كتابًا، فقال يحيى: القرطاس لا يحلُّ له، فدفع إلى الغلام ورقة قطن».

وروي: «أنه صاح بغلام له، فسأله عن خرقة؟ فقال له الغلام: قد رقّعتها فقال للغلام: أخرجها إليّ، فأخرجها من بين ثياب يحيى بن الحسين عليه السلام، فقال له: ويلك!! أنت قليل دين تضع خرقة من الأعشار بين ثيابي!»

ودخل عليه السلام يومًا وقد تطهرّ للصلاة، فأخذ خرقة فمسح بها وجهه، ثم قال: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون هذه الخرقة من العُشُر، فذكرت له ذلك، فقال: ما يحل لنا أن نمسح به وجوهنا، ولا أن نستظِلّ به من الشمس.

ولقد كان الإمام الهادي عليه السلام دقيقًا في إصابة الحق، والقيام بالشرع، لا يستغل منصبَه في أخذِ ما ليس له بحق؛ فقد كان يأمر علي بن أبي عنبسة الصعدي- وكان يشتري ليحيى بن الحسين حوائجه من السوق-: «يا علي اتقِ اللّه تعالى، وانظر فيما بينك وبينه فيما يشترى به لي، ولا تأخذنّ من أحد شيئًا إلا بثمن كما يشتري الناس، ولا تزداد لي شيئًا فتأثم.

وذات مرة جاء رجل من أصحابه إليه فقال له: جعلت فداك، هاهنا قومٌ يعطون بطيب أنفسهم أكثر مما يجب عليهم؛ فنأخذ منهم ما يصلحهم؟ فقال يحيى بن الحسين: واللّه لا أصلحتكم بفساد نفسي.

ومن قصص ورعه ما حدّث عنه علي بن محمد بن سليمان: مررنا في سفرنا مع يحيى بن الحسين بدوم (وهو النبق)، فمضى بعض من كان معه فأخذ حبات يسيرة؛ فصاح به وأغلظ عليه، ثم أمرنا أن نعطي صاحبه ثمنه من دقيقٍ كان معنا، فمضينا إلى صاحبه فقال: لستُ أريد به ثمنًا، إنما يأخذ هذا مَن مرّ به، فأبى أن يأخذه، فرجعنا إلى يحيى بن الحسين فأعلمناه بمقالة الرجل، فقال: اذهبوا بالدقيق فاجعلوه تحت الشجرة ففعلنا ذلك.

وجاء في سيرة الهادي عليه السلام: ورأيته إذا وضعت مائدته لم يبق خلق ممن يحضر في ذلك الوقت إلا صاح به، فلما كان ذات يوم أتيت فإذا الناس يأكلون وهو معتزل ليس يأكل معهم، فأردت أن أسأله، فابتدأ هو بالكلام فقال: لم يمنعني إلا أن هذا الطعام لا يحل لنا لأنه من الأعشار.

وحدّث علي بن محمد بن سليمان: كنت أقبض ليحيى بن الحسين زكاة أموال التجار، فيكون في البلد تجار غرباء يتجرون ويقيمون الأشهر؛ فقلت له: جعلت فداك نأخذ منهم زكاة أموالهم؟ فقال: إن أخذنا منهم زكاة أموالهم وجب علينا أن نحوطهم حيث كانوا في بلادنا وغيرها؛ فلم يأخذ منهم شيئًا.

إنها سيرة الإمام الهادي عليه السلام الذي قاد البلاد، وشيّد مداميك العدل والرشاد، تلك سيرة فاح عطرها؛ فتجاوز التاريخ والجغرافيا، فهل على الطاعنين أن يذهبوا في تلفيق الكذب وتشويه الشمس بدلًا من الاستفادة من سيرته، وحسدًا لأنفسهم من الاغتراف من معين فضله. وللأنفس الطاهرة الخالية من بواطن التعصب والجهل أن تدرك بعدُ تجسيد ما ردده الإمام «إن هي إلا سيرة علي أو النار».

شجاعته

لا نبالغ إن قلنا إنّ الشجاعة والبأس قد تمثلتا في شخصية الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام، وكانتا من أبرز سماته منذُ صغره؛ فهو الشبلُ العلوي الذي لم يعرفْ إطلالة الجُبن، ولم تُكبّلْه حبائل الخوف، بل كان مضرب المثل في البسالة، وموضع الإعجاب من صولاته التي ظلت تُحكى في المجالس ويتناقلها البشر كما يتناقلون انتصاراته، وليس ذلك إلا في سبيل الله عزَّ وجل؛ لإعلاء دينه، وكان ينادي في خصومه أثناء حروبه: «كيف رأيتم قتال أهل العدل والتوحيد؟».

«فإنه كان إذا التقتِ الأبطال، وتداعت نزال، ألفيتَه القطب التي يدور عليها رحى القتال، وكم له من يوم أغر عاود فيه الكَرّ، واستحيا من الفرِّ، إذا حمي الوطيس كان أمام جنوده يضرب كبش الكتيبة، ويُشاهَد له كل حملة عجيبة».

ونجـده في معاركه مع القرامطة وغيرهم في مقدمة الجيش، يصول ويجـول ويحتز الرؤوس، غير نـاكل عن قُـدُم، ولا واهٍ في عزم، يضرب ضـربَ جدّه أميـر المؤمنين علي بـن أبي طالب عليه السـلام، ومن ذلك أنه ضرب رجلًا في أحد معاركه فقَدَّه نصفين، فلمّا نظر إليه قائد العدوّ، قال: اسـتروا ضربة هذا العلوي، فوالله لئن رآها الناسُ لا تناصروا.

ولتلك الشـجاعة المفرطة، قال أحد شـعراء عصره فيه:

لو كان سـيفُك قبلَ سـجدة آدم
قـد كان جُرّدِ مـا عصى إبليسُ

وقد روى مصنِّف سيرته: «أنه كان في بعض أيامه مع بني الحارث، وانتقوا من خيلهم ما يدنو من أربعين فارسًـا مدججة بالسـلاح، وأمروهم أن لا يقاتلوا ويقفوا، حتـى إذا رأوا الهادي عليه السلام حملوا عليه، فبلغ الهادي خبرهم فلم يعبأ بهـم، ولمّا رآهم قصدهم بنفسـه، وحمل عليهم فمـا وقف له منهـم فارس واحـد، وأدرك منهم فارسًـا فطعنه، وألقاه هو وفرسـه في أراكة، وانهزم القوم وعطف عسـكره، وقتل من القوم بيده جماعة كثيرة لم يُثْبِتْ عددَها هو ولا غيره، غير أنه كسـر ثلاثة رماح، وضرب بسيفه حتى امتلأ قائم سـيفه علقًا، ولصقت أنامله على قائم سيفه بالدم».

وكانت لـه عزيمـة عاليّة في حمايـة الدين والدفاع عنه وعن مقدسـاته، ولذلك لمّا همّ علي بن الفضل القرمطي بقصد الكعبة ليخربها، فبلغ ذلك الإمام الهادي عليه السلام، فجمع أصحابه، وقال لهم: قد لزمنا الفرض في قتال هذا الرجل، فَجَبُن أصحابُـه عن قتالهم واعتذروا بقلة عددهم وكثرة عـدد أولئـك، وكان أصحابه في ذلك الوقـت المقاتلة منهم ألف رجل، فقال لهم الهادي إلى الحق عليه السـلام: تفزعون وأنتم ألفا رجل؟ فقالوا: إنما نحن ألف، فقال: أنتم ألف، وأنا أقوم مقام ألف، وأكفي كفايتهم.

ولقد روي أن الإمام الهادي قاتل بسيف جده علي بن أبي طالب عليه السـلام المشهور بذي الفقار، وأعاد لذلك السـيف أمجاده وعـرّفَ الحاضرين بماضي صاحبه الأول علي بن أبي طالب، وكفى بقول الهادي عليه السلام شاهدًا لنفسِه:

الخيـل تشـهد لـي وكل مثقف
بـالـصـبر والإبـلاء والإقـدام
حقًـا ويشـهد ذو الفقـار بأنني
أرويـت حدّيهِ نجيـع طغـامـي

• شهادة تاريخية

من الشـهادات التاريخية شـهادة أبي الحسن الهمداني المعروف بالحروري، وكان رجلًا فقيهًا علـى مذهب الإمام الشـافعي، جمـع بين الفقه والتجـارة، وهنا سـنكتفي بإيرادها مجردةً عن التعليق، ففيها عدد من الحقائق المهمة عن حياة الإمام الهـادي ودولته، وهي شـهادة لها قيمتها؛ كونهـا جاءت من خارج الإطـار الزيدي إن صح التعبير، جاء في الرواية عنه:

قصدت اليمن في بعض الأوقات، وحملت ما أتجر فيه إلى هناك، ابتغاء لرؤية يحيى بن الحسين لِمَا كان يتصل بي عن آثاره، فلما حصلت بصعدة حرسها اللّه، قلت لمن لقيته من أهلها: كيف أصل إليه، ومتى أصل؟، وبمن أتوسل في هذا الباب؟، فقيل لي: الأمر أهون مما تقدر، تراه الساعة إذا دخل الجامع للصلاة بالناس، فإنه يصلي بالناس الصلوات كلها، فانتظرته حتى خرج للصلاة فصلى بالناس وصليت خلفه، فلما فرغ من صلاته تأملته فإذا هو قد مشى في المسجد إلى قوم أعلاّء في ناحية منه، فعادهم وتفقد أحوالهم بنفسه، ثم مشى في السوق وأنا أتبعه، فغير شيئًا أنكره، ووعظ قومًا وزجرهم عن بعض المناكير، ثم عاد إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه من داره للناس، فنفذت إليه وسلّمت، فرحّب بي، وأجلسني وسألني عن حالي ومقدمي، فعرفته أني تاجر، وأني وردت ذلك المكان تبركًا بالنظر إليه، وعرف أني من أهل العلم؛ فأنس بي، وكان يكرمني إذا دخلت إليه، إلى أن قيل لي في يوم من الأيام: إن غدًا يوم المظالم، وإنه يقعد فيه للنظر بين النّاس، فحضرت غداة هذا اليوم، فشاهدت هيبة عظيمة، ورأيت الأمراء والقواد والرجالة وقوفًا بين يديه على مراتبهم، وهو ينظر في القصص ويسمع الظلامات ويفصل الأمور، فكأني شاهدت رجلًا غير من كنت شاهدته وبهرتني هيبته.

فادّعى رجل على رجل حقًا فأنكره المدّعى عليه وسأله البينة، فأتى بها، فحلّف الشهود فتعجبت من ذلك، فلمّا تفرق النّاس دنوت منه فقلت: أيها الإمام رأيتك حَلّفْتَ الشهود!! فقال: هذا رأيي، أنا أرى تحليف الشهود احتياطًا عند بعض التهمة، ما تنكر من هذا؟!، هو قول طاووس من التابعين، وقد قال اللّه تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾[المائدة: ١٠٧]. قال: فاستفدت في تلك الحال منه مَذْهبَهُ، وقولَه وقولَ مَن قال به مِنْ التابعين، والدلالة عليه، ولم أكن عرفت شيئًا منه قبل ذلك.

وأنفذ إليّ يومًا من الأيام يقول: إن كان في مالك للّه حق زكاة فأخرجه إلينا، فقلت: سمعًا وطاعةً، مَن لي بأن أخرج زكاتي إليه، وحَسَبْتُ حسابي فإذا عليّ من الزكاة عشرة دنانير، فأنفذتها إليه، فلمّا كان بعد يومين بعث إليّ واستدعاني، فإذا هو يوم العطاء، وقد جلس لذلك، والمال يوزن ويخرج إلى النّاس، فقال لي: أحضرتك لتشهد إخراج زكاتك إلى المستحقين؛ فقمت، وقلت: اللّه اللّه أيها الإمام، كأنّي أرتاب بشيء من فعلك، فتبسّمَ، وقال: ما ذهبت إلى حيث ظننت، ولكن أردت أن تشهد إخراج زكاتك.

وقلت له يومًا من الأيام: رأيتك أيها الإمام أول ما رأيتك وأنت تطوف على المرضى في المسجد تعودهم وتمشي في السوق، فقال لي: هكذا كان آبائي، كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وأنت إنما عهدت الجبابرة والظلمة.

التزام بالهدي النبوي

كان الإمام الهادي قريبًا من الله، متواضعًا له، ملتزمًا أيّما التزام باقتفاء سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد روى مُؤَلّفُ سيرة الإمام صفة مجلسه، وفيه دلالة على عمق تعلقه بهدي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في السيرة: «أن مجلسه كان مجلس سكينة ووقار ومواعظ، وحزن، واستغفار، ومناظرة في العلم، لا لغو في مجلسه ولا منازعة برفث ولا قول كذب؛ لأنه كان يستقصي الكلام من المتكلم حتى يتبين صدقه، وكان يدني في مجلسه الضعيف والفقير والصبي، ويأمر بذلك، وبالتعاطف عليهم.

ولقد رأيته في مجلسه أتى بصبي صغير فأدنا منه حتى أجلسه بين يديه قريباً منه وجعل يمسح رأسه، ثم أمر له بشيء، ورأيته في مجلسه يكرم كريم كل قوم ويعرف له قدره.

ورأيته في مجلسه حليمًا وقورًا، لا يغضب من الكلام إذا كَثُر، ولا يَضْجَر من المسائل إذا وردت إليه، بل يرد جواب كل سائلٍ بسكون وحلم وعلم.

ورأيته في مجلسه يدير بصره بين جلسائه يمنة ويسرة، حتى يفهم كل من حضر المجلس ما يقول، لا يَخُصُّ أحدًا بجميع كلامه، صائنًا لنفسه في مجلسه، قليل الحركة، لا يتكئ بين

جلسائه، ولا يستخِفُّ بهم، حسن الصمت إذا صمت بين الكلام، إذا نطق لا مهذرًا في الكلام، ولا عييا في الجواب، ولا سَكُوتًا عما يُحتاج إليه، إن تكلم ببيان، وإن سكت فبحفظ اللسان، لا يقوم عن جلسائه حتى يقوموا، وإن عرضت له حاجة صبر معهم حتى ينصرفوا، فعلمت بذلك أنه كان إذا لم يبق في مجلسه أحد قام لقضاء حاجته، فكنت أعلم أنه كان يحتاج للقيام قبل ذلك فيمنعه من ذلك الكرم والأدب، وكذلك جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان لا يقوم عن جلسائه حتى يتفرقوا.

ورأيته في مجلسه كثير الفكر في صلاح أهل الإسلام، مظهرًا الشفقة عليهم، والرحمة لهم.

ورأيته في مجلسه كثيرَ الوعظ للخلق، يأمرهم بالطاعة لله، والأمرِ بالمعروف، والنهي عن المنكر، يناظر مَن ناظره منهم بالنصفة، لا يخطئ أحدًا في جواب، بل يَرْفِق بمَن يناظره، ويفهمه ويلقنه حجته، ويقول له: انظر وتثبتْ، حتى يثبت لمن يناظره حجته، شفيقًا على الخلق رفيقًا بهم، يحضهم على طلب الخير والتقى، وينهاهم عن جميع المعاصي والردى.

ورأيته في مجلسه يوصي الناس بالتراحم والتواصل، وينهاهم عن البغي والتحاسد.

• عالمية الإمام الهادي:

مما تلاحظ في شخصية الإمام الهادي؛ هو عالميته في زمن انعدام وسائل الاعلام والاتصال، ففي خلال خمسة عشر عامًا - وهي مجموع ولايته من يوم دخوله اليمن إلى حين وفاته - تجد أن اسم الإمام الهادي قد بلغ أقصى المشرقين، وأن مئات المسلمين ومن بلدان إسلامية مختلفة ومذاهب متعددة قصدوا صعدة عاصمة الإمام، وانظموا إلى صفوف جيش الإمام وأحبُّوا مجاورة دولته؛ ومن أولئك: أبو الحسن الهمداني (المعروف بالحروري)، وهو أحد علماء الشافعية في ذلك العصر، وقد قصد صعدة بغية رؤية الإمام الهادي وله قصة ستجدونها في ثنايا هذه المجلة.

ومن أبرز الوافدين على الإمام الهادي: العالمُ الحافظُ المسند محمد بن سليمان الكوفي، والذي جاء من العراق بغية التشرف بالجهاد بين يدي الإمام الهادي، وكان برفقة أخيه علي بن سليمان الكوفي، وقد حظي بمقام رفيع عند الإمام الهادي لعلمه، وقد ولاه الإمام على القضاء.

وممن قصدوا الإمام الهادي وكان لهم مواقف مشرفة في الجهاد والتضحية: مجموعة قدمت من طبرستان عُرِفوا بالطبريين؛ ومنهم: العالم الجليل أحمد بن موسى الطبري.

كما قصد صعدة رجلٌ من مصر - كما في السيرة - وقد قتله اليامين في نجران، وقد تحرك الإمام الهادي لنصرة ذلك الوافد.

من خلال ما تقدم ندرك جيدًا أن الإمام الهادي كان عالمي الصيت، طيب العرف، ملأ العالم عطرًا وأريجًا؛ جذب القلوب من مختلف الأصقاع، فجاءوا إليه طائعين وعاشوا في ظله منعمين.. حتى إن بعضهم بعد وفاة الإمام الهادي أحسّ بالغربة فقرر الرجوع إلى بلاده، فرأى في منامه الإمام؛ وكان فحوى الرؤيا البقاء في اليمن ومواصلة الدرب.

عناية الله

إن الله سبحانه وتعالى إذا ما قام عبدٌ من عباده بما افترض عليه، وتحمّلَ عبءَ المسئولية، وعانا في سبيل تبليغ الهدى، وقاد مسيرة الصلاح والنور، وضحّى في ذلك، رعاه الله جل وعلا بعنايته، وأوكله في كل أحواله على تدخلاته وتأييداته، ولنا في قصة الأنبياء شاهد على ذلك، كيف جعل النار لإبراهيم بردًا وسلامًا، وكيف شقّ البحر لموسى يبسًا وأمنًا.

ولأنّ مسيرةَ الأئمة تأتي في سياق القيام بحق خلافة الأنبياء؛ كان الله الجليل العزيز معينًا لهم في كل محطات حياتهم، وفي مسيرتهم التصحيحية.

وللإمام الهادي في نضاله وجهاده ودولته شواهد حية على ذلك؛ فقد يتجلى لطف الله وعنايته في إرسال رحمته بالمؤمنين المجاهدين عند اشتداد الحال بهم وتفاقم وضعهم؛ كما قال مؤلف سيرته: «وسرنا [في طريقنا إلى اليمن] فأصابنا في بعض الطريق عطش شديد، حتى أتعبنا الأمر، فنزلنا وقد أجنّ علينا الليلُ وأظلم، ومضى بعض أصحابنا يطلبون الماء، ولم ننزل منزلنا ذلك ونحن نطمع فيه بماء، غير أنّا لا نيأس من رحمة الله ورزقه، فبينما رجل من أصحابنا يلتمس الماء بين شجر كثير وخمر؛ إذ وجد بؤيرة صغيرة، قد التفّ عليها الشجر من كل موضع، لا يهتدي إليها بالنهار إلا جهدًا، فصاح بنا فأتينا مسرعين إليه، فوجدنا الماء في البئر كثيرًا عذبًا، فشربنا وسقينا دوابنا واستقينا في مساقينا، ورَحَلْنا، فسألت الذين كانوا معنا من الأعراب: هل كانوا يعرفون هذا الماء أو وردوه قط، أو سمعوا به، فحلفوا ما رأوه ولا سمعوا به».

ومن عناية الله وتأييده للقائمين بالإصلاح، والساعين في هداية الناس: بثُّ هيبتِهم في قلوب الناس، ونشرُ رايةِ القبول لهم في أوساط المجتمعات، وهنا نتذكر ما قام به الإمام الهادي عقيب وصوله إلى اليمن من إخماد الفتنة، التي كانت قائمة بين قبيلتي سعد والربيعة؛ وهي فتنة استمرت لسنوات، وكان قد ذهب فيها الرجال والأموال، وقد حاول عدد من ملوك آل يعفر إخمادها فلم يفلحوا، حتى وصل الهادي فأخمد تلك الفتنة، قال مؤلف سيرته: «فوصلنا [أي الهادي وأصحابه] إلى صعدة لستة أيام خلون من صفر من سنة أربع وثمانين ومائتين، فقدمنا على خولان وبينهم فتنة عظيمة قد فني فيها الرجال وذهبت فيها الأموال، وقحطت البلد وجدبت الأرض وكان ذلك وقت الزرع، فرأيت الزروع وقد يبس بعضها عطشًا، ورأيت البهائم تهافتتْ موتًا.

فلما قرُب يحيى بن الحسين من البلد ضرب مضاربه قريبًا منها، وأمرنا بالنزول فيها، فنزلنا

وخرج الناس إليه طوعًا، لم يكره أحدًا إلى الخروج إليه، ولم يرسل لأحد يستقبله، فخرج إليه أهل صعدة الذين كانت بينهم الفتنة؛ وهم سعد والربيعة، والتقوا بأجمعهم إليه، وسلموا عليه، فسلّم عليهم، وأمرهم أن يسلِّمَ بعضُهم على بعض؛ ثم ابتدأ، فخطب خطبة عظيمة بليغة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي، وذكّرهم بالله، ووعظهم بمواعظ كثيرة؛ فرأيت الناس وبهم رجة، وهم يبكون مما سمعوا من كلامه ومواعظه، ويضجون كما يضج الحجاج عند بيت الله الحرام، ثم أمر بمصحف، فاستحلف بعضهم البعض بترك الفتنة والعداوة، فحلفوا على ذلك، ثم أحلفهم هو لنفسه على الطاعة له والمناصرة والقيام بأمر الله والمعاضدة، فبايعوه في موضعه ذلك، واختلط الفريقان وكبروا، ودخلوا بأجمعهم صعدة كأن لم يكن بينهم فتنة، وكأنهم إخوة، فما رأيت يومًا قط أحسن من ذلك اليوم، ولا أيسر، لِمَا كان قد تناهى إلينا مما كان بين سعد والربيعة من قتل الرجال، وذهاب الأموال، وكنت أظن أمرهم لا يتفق ولا يصلح، فلمّا رأيت سرعة اتفاقهم، وصلاح أمرهم علمت أن ذلك هيبة أعطاها الله تبارك وتعالى يحيى ين الحسين؛ لأنه لم يكن معه إلا خمسين رجلًا بالذين تبعوه من بني معاوية بن حرب، وممن تبعه من الطريق في غيرهم من الناس فأصلح بين الناس بلسانه وبالهيبة التي جعلها الله له».

وبعد أن يبلي المجاهدون البلاء الحسن، وتتحقق على أيديهم إزاحة الفاسدين والظالمين، يبسط الله لعباده في ظل دولتهم سنيّ رحمته ووافر عطفه؛ لأنّ ذلك من أهم مكتسبات تحقيق العدالة: أن ينزل الغيث على العباد من بعد قنوطهم، وأن تنعم البلاد بالخير والأمطار، وهذا متلائم مع قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ ومن أهم مصاديق الاستقامة إقامة العدالة..

ولقد حظيت سنوات حكم الهادي عليه السلام لليمن بنعم متتابعة وأمطار كثيرة؛ فقد أخبر محمد بن حجاج اليرسمي وجماعة من أهل اليمن: «أنهم أجدبوا وقحطت بلادهم سنة ثمانين ومائتين، فلما وصل إليهم يحيى بن الحسين جاءهم الغيث وتتابعت الأمطار حتى تمنوا قلتها؛ لكثرة ما جاءهم من الأمطار، ويتحدث جماعة أخرون من أهل اليمن: «جاءنا الغيث ببركة أبي الحسين»[يعنون الإمام الهادي عليه السلام]، ويخبر جماعة من بني عقيل: «ما مضى أبو الحسين بموضع من بلدنا إلا أمطر».

• مهام شاملة

كان الإمام الهادي يدير دولة مترامية الأطراف، وله الجيوش والأمراء، ويحكم البقاع والأصقاع، ثم لا يمنعه ذلك من أن يقوم بتطبيب أصحابه، يقول مؤلف سيرته: «ذات مرة وقع رجل من أصحابه عن فرسه، فأصابت أنفه الأرض، فرأيته يداويه بيده ويرقيه».

قال الإمام الهادي عليه السلام

(والله ما دَعْوَتُنا هذه إلا دعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بِمثل، دعا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى كتاب الله والسنة، وكذلك دعوتنا نحن إلى كتاب الله وسنة نبيه، فهل يقدر أحدٌ أن يقول إنّا خالفنا حكم الكتاب والسنة؟ ما يمنع أهل الأموال من القيام معنا إذا أخذنا منهم ما يجب عليهم؟ وما يمنع الفقراء من القيام معنا إذا لم نستأثِرْ بشيء من الأموال دونهم؟. والله ما يمنعهم من ذلك إلا ما مَنَعَ مَن كان قبلهم من القيام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وما يمنعهم إلا أن دعوتنا مثل دعوة محمد)

.....

(لوددت أن الله أصلح بي أمر هذه الأمة، وأني جعت يومين وشبعت يومًا)

.....

(والله لوددت أن الله أصلح الإسلام بي، وأن يدي ملصقة بالثريا ثم أهوي إلى الأرض فلا أصل إلا قطعًا)

.....

(يا أهل اليمن لكم عليّ ثلاث، أن أحكم فيكم بكتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وآله وسلم وأن أقدمكم عند العطاء وأتقدمكم عند اللقاء ولي عليكم النصح والطاعة ما أطعت الله. والله لإن أطعتموني لا فقدتم من رسول الله إلا شخصه إن شاء الله.

الذكرى الخالدة

في السادس من شهر صفر سنة ٢٨٤هـ قدم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام إلى اليمن الميمون، ملبيًا دعوة اليمنيين، ومستجيبًا لاستغاثتهم به، وكان هذا الخروج الثاني؛ إذ كان قد خرج إليهم قبل ذلك في سنة ٢٨٠هـ، ولكنه لم يلبث إلا مدة يسيرة ثم رحل عنهم عائدًا إلى بلده بجبل الرس من المدينة المنورة.

وكان محطُّ ركابه في الخروج الثاني بأرضِ صعدة الطيبة، فاتخذها دارًا له، ومقامًا لحكمه، ومنبرًا لدعوته، ومنها نشر العدل، وأحيا ما درس من شعائر الدين، فأحلّ الله بقدومه الخير، وأسبل النعم، ونال أهل اليمن النفع والبركة؛ وقد جدّد لهم هذا الحدث الجليل ذكرى قدوم جدِّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في أول جمعة من شهر رجب، وما كان من إسلام أجدادهم ونصرتهم لدين الله؛ حتى نطق لسان حال الجميع (ما أشبه الليلةَ بالبارحة).

ومنذ ذلك الحين أصبح ليوم السادس من صفر من كلِّ عام مكانة عظيمة في نفوس اليمنيين، وقدسيةٌ نَحَتوها في قلوبهم، وذكرى جعلوها محطةً يقفون عندها شاكرين لله وحامدين له على مننه وإفضاله، محتفلين ببهجة المؤمنين، وقد تجلى فيهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨].

عهد الإمام الهادي لولاته

هذا ما عهده الهادي الى الحق أمير المؤمنين يحيى بن الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته، لفلان بن فلان: «إنّي ولّيتُك جباياتِ قرية كذا وكذا، وضمّ ما أوجبَ الله علينا ضمّه من أعشارهم، واستأمنْتُك على ذلك، وقلدْتُك إياه بأمانة الله تبارك وتعالى، وأمانةِ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

فانظُرْ ـ أعانَك الله وأحاطك ـ إذا وَصَلْتَ إلى البلد الذي وجّهْتُك إليه أن تدخُلَه بالسكينة والوقار، والذكر لله الواحد الجبار.

وأمُرْ بمنزلٍ يكترى لك كراء فانزِلْ فيه، ولا تجشّمَنّ أحدًا من أهل البلد من مؤنتك شيئًا قليلًا ولا كثيرًا.

ولا تقبلنّ لأحدٍ منهم هدية، فمَنْ قَبِلَ من أحد هديةً ممن يُسْتَعمل عليه فتلك الهدية لبيتِ مالِ المسلمين؛ لأنها أُهْدِيَت له في عملهم وعلى ولايته، وبذلك مضى الحكم من أمير المؤمنين على بن أبي طالب رحمة الله عليه وصلواته.

فإذا قَرّ قرارُكَ فليَكُنْ أوّلُ ما تبتدئُ به إن شاء الله الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وتعليمَ النّاس إقامةَ صلواتِهم، والإتمامَ لركوعهم وسجودهم.

ومَنْ علمْتَ منهم من بواديهم ممّنْ يردُ عليك أو ممّنْ معك في البلد أنّه لا يفهم من القرآن ما يُصَلّى به فعَلّمْهُ ما قَدَرَ عليه، وقَوِيَ مِنْ مُفَصّل القرآن، وعلّمْهم ما قدرْتَ عليه من أصول الدين، وفضل الجهاد والمجاهدين، ومعرفةَ الحق والمحقين، والولاية لمن أمرَ اللّه تعالى بوَلايته من أهل بيت نبيه الطاهرين.

ثم انظُرْ في عملك فما كان من الزّرع يُسقَى سَيحًا أو بماء السماء فخُذْ عُشْرَه كاملًا، وما كان من ذلك يسقى بالسواني والدوالي فخُذْ نصفَ عُشْرِه، وكذلك إذا كان العنَثَري بكلام أهل اليمن، وهو الأعذاء بكلام أهل العراق، والمسقي ثلاثة وثلاثون فرقًا وثلث الفرق، وهو خمسة أوسق كاملة.

فإن قَصُرَ شيئًا مما يجب فيه العشر أو نصف العشر عن هذه الثلاثة والثلاثين فرقًا وثلث فسَلّمْهُ إلى صاحبه، ولا تأخُذْ منه عُشُرًا ولا نصفَ عُشُر، فإن اللّه تبارك وتعالى لم يوجب في ذلك شيئًا.

وانظُرْ إن كان لرجلٍ أقلُّ مما سمّينا من الكيل شعيرًا، أو أقلُّ من الكيل برًا فسلّم الصنفين جميعها لصاحبهما، ولا تَضُمّ أحدَهما إلى صاحبه، فإنه لا يجبُ في شيء من ذلك زكاةٌ حتى يَبْلُغَ كلُّ صنف من الأصناف هذه المكيلة المسماة.

وانظُرْ أن تسال عن أشراك الناس فمَن علمت له شِرْكًا في قِطَعٍ متفرّقة كثُرَ ذلك أو قَلّ فلُمّ بعضَه إلى بعض؛ فإن كان جميع ما أخرج اللّه سبحانه وتعالى لصاحب هذا الطعام في موضع واحد أو مواضع مختلفة يبلغ الخمسة الأوسق؛ وهي ثلاثة وثلاثون فرقًا وثلث الفرق الذي ذكرتُ لك، فخُذْ منه زكاتَه على ما شرحْتُ، وإن لم يفِ فلا سبيل لك عليه.

فإذا ضمَمْتَ جميعَ ما قِبَلَكَ إن شاء اللّه تعالى من حقّ اللّه تبارك وتعالى فقَدِّمَ في ذلك وفي حفظه النيةَ والأمانة.

واعلم أنّ اللّه تعالى المطّلعُ على فِعْل كل فاعل، والمجازي على عمل كل عامل، وذلك في قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره).

وأخرِجْ من ذلك ما تحتاج إليه من مؤونتك وأسبابك، ومؤونة من تحتاج إلى عونه وقيامه معك، فإنّ اللّه تبارك وتعالى قد جعل لك إخراج ذلك بالمعروف.

ثم انظرْ أن تكتبَ أسماءَ فقراءِ البلد الذي أنت به ومساكينه، ولا تكتبْ من أهله إلا كلّ من لا حيلة له إلى التحرُّف والاستغناء عن ذلك، فإنك إن كتَبْتَ جميع مَن يحتاج ممّن له حيلة ومن ليس له حيلة أضررْتَ بمن لا حيلةَ له، فآثِرْ أهلَ المَتْرَبَة، وأهلُ المَتْرَبَة: من لا حيلةَ له.

وأزِحْ من كانت له حيلةٌ في الرزق حتى يُوَسِّع اللّه علينا وعليه، فنصيّرُ ما أمرنا اللّه بتصييره إليهم من أموال اللّه تبارك وتعالى إن شاء اللّه تعالى.

فإذا أثبتَّ عِدّتَهم فاعزِلْ رُبْعَ جباية بلدهم، ثم اكتبْ إليّ بعددهم، وبكل ما جعل اللّه لهم حتى أكتبَ إليك برأيي، وكيف تُفَرِّقُه إن شاء اللّه تعالى.

وانظر إن جاز بك ابنُ سبيل؛ فشَكَا إليك حاجةً أن تُقَوّيَ أمرَه وتلُمَّ شعثه، وتجري في جميع أمورك ما يُقَرِّبُك إلى اللّه تبارك وتعالى، فإن ذلك أنفعُ لك في الدين والدنيا، والسلام عليك».

الإمام الهادي إلى الحق

إضاءات فكرية

ميزات فكر الإمام الهادي عليه السلام

تميّز فِكرُ الإمامِ الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهم السلام بوضوح الرؤى، والسعي الحثيث لاتباع الحق أينما كان، وممن كان، ويظهر ذلك من خلال المنهجية التي سار عليها في إعمال الدليل ومناقشة المسائل، مجانبًا لهوى النفس، والتعصب الجاهلي، مطّلِعًا على آراء الفِرقِ المختلفة واستدلالاتهم، بل ومتفوّقًا عليهم في معرفة مذاهبهم، وبشهادة الأجلاء من علمائهم.

وفي كل لحظاته وسكناته نجِدُهُ عليه السلام كما قال صاحب سيرته: «كثير الفكر في صلاح أهل الإسلام، مظهرًا للشفقة عليهم، والرحمة لهم»، «لا يفتأ عن وعظهم وإرشادهم، وأمْرِهم بطاعة الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

لقد كان عليه السلام صاحب مشروع فكريّ تنويري مبنيّ على أسس وتعاليم الإسلام الحنيف، ينطلق فيه من الشعور بالمسؤولية ولزوم الواجب الديني.

ولنقرأ هنا شيئًا عن شخصيّة الإمام الهادي عليه السلام الفكرية في عناوين مختصرة:

• تراثه الفكري:

اشتغل الإمام الهادي عليه السلام بالجهاد في سبيل الله، ومحاربة البغاة والمفسدين، حتى قيل: إنه عليه السلام كان لا يتمكن من إملاء مسألة إلا وهو على ظهر فرسه في أغلب الأوقات، ومع ذلك فإن اهتمامَه بالجانب الفكري، وسعيَه لنشر تعاليم الدين الصحيح، كان يشحذ لديه الهمّة، ويوقد فيه العزيمة للتأليف والتدريس والردّ على الشبه وحلّ ما يُشكِل، ولأهمية مؤلفاته وقيمتها العلمية فقد حظيت بانتشار واسع، وقبول بين علماء الإسلام قاطبة، ومن ذلك قول ابن حزم صاحب المحلى: «وليحيى هذا الملقّب بالهادي رأيٌ في أحكام الفقه قد رأيته لم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد.. إلى آخره»؛ فخلّف لنا عليه السلام مجموعة فريدة من المصنفات التي أثْرَت المكتبة الإسلامية في مختلف الفنون.

فنجد له في الفقه باكورة (أول كل شيء) من الكتب القيمة؛ من أشهرها:

- كتاب (الأحكام في الحلال والحرام)، الذي جعله كما قال عليه السلام: «مستقصى، فيه أصول ما يُحتاج إليه من الحلال والحرام، مما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله ليعمل به ويتكامل عليه من ذكرنا».

وفي كل مسألة من مسائل هذا الكتاب نجد الإمام الهادي عليه السلام يحرص أشدّ الحرص على إظهار الحق، فيسرد الأدلة على صحة أقواله، وينزل الحجج منازلها، كما نجده يناقش الآراء ويبدد غياهبها حيثُ يحتاج الأمرُ إلى ذلك؛ كل ذلك بأسلوب علميّ راقٍ، ومنهجية بحثية فريدة.

وقد قال العلامة علي بن بلال عن كتاب الأحكام: « مَا أعلم لأحد من أهل بيت رسول الله كتابًا في الفقه أجمع وأكثر فائدة منه».

- كتاب (المنتخب)، وهو من الكتب المشهورة؛ مما سأله القاضي محمد بن سليمان الكوفي، وقد شمل جميع أبواب الفقه.

- كتاب (الفنون)، وهو أيضًا مما سأله عنه القاضي محمد بن سليمان الكوفي، وقد شمل عددًا من أبواب الفقه.. كما أنّ له أيضًا في الفقه غير هذه الكتب.

وله في علوم القرآن:

- كتاب (تفسير القرآن)، في ستة أجزاء.
- كتاب (معاني القرآن)، في تسعة أجزاء.

وفي العقيدة وغيرها نجد له الكثيرَ من الرسائل والردود القيمة؛ منها:

- كتاب (البَالِغ المُدْرِك) شرحه الإمام أبو طالب الهاروني.
- كتاب (المنزلة بين المنزلتين).
- كتاب (مسائل الرازي).
- كتاب (تفسير الكرسي).
- كتاب (العرش والكرسي).
- كتاب (الرد على ابن الحنفية).
- كتاب (بوار القرامطة).
- كتاب (أصول الدين).
- كتاب (الإمامة وإثبات النبوة والوصاية).
- كتاب (الرد على الإمامية).
- كتاب (الرد على أهل صنعاء).
- وكتاب (الرد على سليمان بن جرير)
- كتاب (تفسير خطايا الأنبياء)، وكتاب (جواب القمي).
- كتاب (الرد على المجبرة القدرية).
- كتاب (مسائل الحسين بن عبدالله الطبري).
- (مسائل الطبريين).

وله عليه السلام غير ما ذكر.. تركناه اختصارًا.

وفي أصول الفقه:

- كتاب (القياس)، بحث فيه عن سبب افتراق الأمة، ومسألة استنباط الأحكام الشرعية، ومَن هو الذي يجب اتباعه من أهل البيت، ومتى يختلفون، وغير ذلك.
- كتاب (السنة)، ويتناول الرد على من زعم أن السنة ليست وحياً من الله، بل هي اجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام بعد ذكر هذه المؤلفات: وقد تركنا قدر ثلاثة عشر كتابًا كراهة التطويل، وهي عندنا معروفة موجودة.

فيا له من تراث عظيم، وعلم جمّ خلّفه لنا الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام، وأنار لنا به دياجير الظّلَم، وأحيا ما انْدَرَسَ من معالم الدين.

• اهتمامه بالحركة العلمية

كان الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام رائدَ الحركة العلمية في منتصف القرن الثالث الهجري؛ فهو من حرص على إقامة الدروس العلمية، وإلقاء المسائل حتى في أشدِّ المواقف، وهو المصنِّف في شتَّى العلوم كما قدمنا، والمناقش لعلماء الفِرَقِ الأخرى، وتتجلى نظرته لأهمية العلم في قوله: «إن الله عز وجل لم يغفر لأحد بالجهل، فالواجب عليه أن يكون عمره كله في طلب الخروج من الجهل إلى العلم».

قال عنه العلامة محمد أبو زهرة: «عكف على الفقه يدرسه من كل نواحيه ومن كل مصادره وقام هاديًا مرشدًا يدعو إلى الله سبحانه إلى صراط مستقيم، فكان مرجعًا في الدين من كل الطوائف الإسلامية، والأمصار المختلفة يسألونه ويستفتونه وهو يرد عليهم برسائل قيمة

أُثرت عنه يدافع فيها عن القرآن والسنة، ويبين الحق الذي يرد زيغ الزائغين».

ويدل على همته العالية في إثراء الحركة العلمية تنقله وارتحاله بين البلدان منذ بلوغه مرتبة الاجتهاد، وحضوره مجالس علمائها، فقد رحل إلى العراق؛ حيث حضر حلقة القاضي أبي خازم، فما جرت مسألة إلا خاض فيها، وذَكَرَ ما يختاره منها، ويحتج ويناظر؛ ثم ارتحل إلى آمل بطبرستان مع والده وبعض عمومته ومواليه، فالتفّ الناسُ حوله، حتى كتب إليه وزير حكومة الإمام محمد بن زيد عليه السلام: بأن ما يجري يوحش ابن عمك، فأجابه الهادي عليه السلام قائلًا: «ما جئنا ننازعكم أمركم، ولكن ذُكِر لنا أن لنا في هذه البلدة شيعةً وأهلًا، فقلنا: عسى الله يفيدهم منا».

قال الدكتور حمود الأهنومي في دراسة حول سيرة الإمام الهادي عليه السلام: «ويترجح أنه في تلك الرحلة التقى أبا القاسم البلخي (ت٣١٩هـ/٩٣١م) في آمل، لقاء الندِّ بالندِّ، والعالم بالعالم، وتناقش وإياه حول عدد من المسائل الأصولية التي كانت مثار النقاش في ذلك الوقت..».

وحين جاء الإمام الهادي عليه السلام إلى اليمن كان أول اهتماماته هو تعليم الناس، فكتب إلى عماله عهدًا تضمّن أن يكون أول أعمالهم هو تعليم الناس أساسيات الدين، من صلاة وغيرها، فقال فيه: «وآمُرُكم من بعد ذلك بتعريف الرعيّة بحق الله، وتعليمها ما أوجب الله عليها من معرفته سبحانه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف الأكبر، والنهي عن المنكر والمظالم، وترك معاصي الله، والتعدي في أمر الله».

وكان عليه السلام يحثّ الناس على طلب العلم، فكان يردد: «أين الراغب؟ أين من يطلب العلم؟ إنما يجيئنا مجاهد راغب في فضله متحرٍّ ما عند الله لأهله، ولعمري إنّه لأكبر فروض الله على عبده، وأحقُّ ما كان من تقدمه يده، ولكن لو كان مع ذلك رغبة في العلم وبحث عنه لصادفوا من يحيى بن الحسين علمًا جمًّا».

وسُمِع عليه السلام يقول: «قد عَفُنَ العلم في صدري، كما يعفن الخبز في الجرة إذا طرح بعضه على بعض في جرة ثم لم يقلب».

والإمام الهادي إلى الحق عليه السلام هو الذي طوى القرامطة - الذين عُرفوا بمذهبهم المخالف للدين والفطرة السليمة - من أكثر مناطق اليمن، فكان هو الهادي اسمًا وعملًا؛ وصدق من قال: «لليمن نعمتان، نعمة الإمام الهادي، ونعمة العالم جعفر بن عبد السلام فلولا الهادي لكانت اليمن قرمطية، ولولا ابن عبدالسلام لكانت مطرفية».

قال الدكتور حمود الأهنومي: «وفي آخر عمره همّ بالتفرُّغ أكثر لتدريس ونشر العلم، فحالت المنية بينه وبين ذلك، وربما كان تحرك تلامذته في نشر علمه بعد موته - كما سيأتي- كان استجابة وتلبية لرغبة أو وصية شيخهم الإمام الهادي، وكان طيلة عهده في اليمن لا يفتأ عن تعليم الناس ووعظهم، بل كان يعدُّ تعليم الرعية فرضًا من الله على إمام الأمة».

إلى أن قال: «كان تدريسُ العلم ضمن يومياته التي كان يلتزم بها، فقد كان يجلس ما بين الصلوات، فيعظ الناس، ويعلمهم فرائض الدين، وفرائض المواريث، بل وكان من ضمن أعماله المستمرة أنه كان يقف على الحبس، ويأمر بتعليم المحبوسين، ويأمر القارئ من السجناء بتعليم من لا يقرأ منهم، وكان يبعث الدعاة والمعلّمين إلى الآفاق، حتى أنه بعث أو كلّف دعاةً ومبصّرين ومعلّمين ومفقّهين في بلاد بعيدة عن اليمن، كطبرستان، وكان يعدُّ ذلك من صفات الإمام العادل الذي يكون مفرّقًا للدعاة في البلاد، غير مقصر في تأليف العباد».

وحين توجه الإمام الهادي عليه السلام إلى موطنه بجبل الرس، عائدًا من اليمن- لما رأى تثاقل أهلها عن إقامة الحق- أقام في المدينة على التدريس والنظر في الحلال والحرام والسنن والأحكام والآثار والأخبار مُجِدًّا فيه مواظبًا عليه.

ومما يدل أيضًا على تلك الحركة العلمية الكبيرة التي أقامها الإمام الهادي عليه السلام، انتشار علمه وفقهه داخل اليمن وخارجها؛ وقد حكى ذلك الشهيد المحلي فقال «وطار فقهُه في الآفاق، حتى صارت أقوالُه في أقصى بلاد العجم، يأنسون بها أكثر من أنس أهل اليمن بها، وعليها يعتمدون وبها يفتون ويقضون».

ويلخص ذلك كله ما وصفه به ولده المرتضى عليه السلام بعد وفاته أمام جمع غفير من الناس: «كان لكم الهادي - رضي الله عنه- الناصحَ لكم، الحَدِبَ عليكم، كان والله حريصًا على إرشادكم، طالبًا لإصلاحكم، مؤثرًا لكم، حاملًا لكم على ما فيه نجاتكم، داعيًا لكم إلى ما يقربكم إلى الله، زاجرًا لكم عما يبعدكم منه».

وقد تجلّت ثمرةُ هذه الحركة العلمية في صلاح الرعية، واستقرار أوضاعهم، وانتهاء الفتن، وانتشار مذهب العدل والتوحيد، بالإضافة إلى العدد الكبير من العلماء والفضلاء الذين تخرّجوا على يديه، كولديه الناصر والمرتضى، وأخيه عبدالله بن الحسين، وكالعلامة عبدالله بن الحسين الطبري، والعلامة الكبير إبراهيم بن إسحاق، والعلامة إبراهيم بن محسن بن الحسين العلوي، والعلامة جعفر الطائي الوقار، والعلامة عبدالله بن أحمد التميمي، والعلامة عبدالله بن عمر الهمداني، والعلامة الحافظ علي بن الحسن بن أحمد بن أبي حريص، والعلامة علي بن سليمان الكوفي، والعلامة الحافظ علي بن العباس بن إبراهيم، والعلامة أبي القاسم الرازي، والعلامة الكبير محمد بن سليمان الكوفي، والعلامة محمد بن عبدالله الحنبصي، ولا ننسى العالم الرباني والمناظر المتمكن أحمد بن موسى الطبري، فإنه كان من أبرز تلامذته، وغير هؤلاء الكثير ممن برزوا في العلم والفضل.

• المذهب العقائدي عند الإمام الهادي (ع)

كان مذهب الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام العقائدي هو مذهب آبائه الأكرمين عليهم السلام، لا يختلف عنهم في الأصول، ولا فيما أجمعوا عليه؛ فهو القائل بتوحيد الله سبحانه وتعالى وعدله، المصدق بوعده ووعيده، المؤمن بالنبوة، والمثبت

للإمامة في علي بن أبي طالب عليه السلام وذريته من أولاد الحسنين، والمعتقد بوجوب الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، وتجريد السيف على من عَنَد عن دين الله.

وله عليه السلام الكثيرُ من الكتب والرسائل التي دوّن فيها معتقداته واحتج لها، واستدّل على صحتها، وله الردود الكثيرة على أهل المعتقدات الفاسدة، فلم يكن جهادُه عليه السلام يقتصر على السيف، بل خاض أيضًا حربًا فكرية لا تقل - إن لم تكن أكثر- أهمية عن الحرب الجهادية.. حتى نفى بذلك المذاهب الرديّة، وأظهر مذهب العدل والتوحيد في كثير من المناطق داخلَ اليمن وخارجها.

يقول الإمام عليه السلام وهو يشرح اعتقاده: «إنّا ندين بأنّ الله واحد أحد، ليس له شبه، ولا نظير، ولا مثل، ولا عدل، ولا كفؤ في وجه من الوجوه، ولا معنى من المعاني، وأنه ليس بذي صورة، ولا حدٍّ، ولا غاية، ولا نهاية، ولا بذي أجزاء ولا أعضاء، ولا بعضه غير بعض، ولا يقع عليه الطول والعرض، ولا يُوصف بالهبوط، ولا الصعود، والتحرك، والسكون، والزوال، (والعجز، والهرم، والجهل)، والانتقال، والتغير من حال إلى حال»؛ إلى آخر كلامه.

ويرى عليه السلام: «أول ما يجب على العبد أن يعلم أن الله واحد أحد، صمد فرد، ليس له شبيه ولا نظير، ولا عديل، ولا تدركه الأبصار في الدنيا ولا في الآخرة؛ وذلك أن ما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف، محويٌّ محاط به، له كُلٌّ وبعضٌ، وفوقٌ وتحت، ويمين وشمال، وأمامٌ وخلفٌ، وأن الله لا يوصف بشيء من ذلك، وهكذا قال لا شريك له: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾[الإخلاص:١-٤]، والكفو: فهو المِثل والنظير والشبيه، والله سبحانه ليس كمثله شيء،..».

كما يرى عليه السلام وجوب الاعتقاد بعدل الله سبحانه وتعالى، فيقول: «ثم يَعْلَمَ أنّه عزّ وجلّ عدلٌ في جميع أفعاله، ناظر لخلقه، رحيم بعباده، لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يسألهم ما لا يجدون، و﴿لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٠]، وأنه لم يخلق الكفر ولا الجور ولا الظلم، ولا يأمر بها، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفحشاء، وذلك أنه من فعل شيئًا من ذلك، أو أراده أو رضي به، فليس بحكيم ولا رحيم، وإن الله لرؤوف رحيم، جواد كريم متفضل، وأنه لم يحل بينهم وبين الإيمان، بل أمرهم بالطاعة، ونهاهم عن المعصية، وأبان لهم طريق الطاعة والمعصية، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾».

ويرى عليه السلام أن مذهب الجبر والتشبيه قد هدم قواعد الإسلام، ويتشدد على من يعتقد بها، ويحرم ذبائحهم؛ لما في هذين المعتقدين من الخطر العظيم ونسبة ما لا ينبغي ولا يجوز ولا يعقل إلى الله عز وجل، ولما فيهما - أيضًا- من الضرر الكبير على المسلمين، وقد قال في وصف هذا الضرر: «وقوم يقولون على الله بالجبر والتشبيه، وينفون عنه العدل والتوحيد، وينسبون إليه عز وجل

أفعال العباد، ويقولون: إن هذا الذي نزل بهم بقضاء وقـدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالميـن، ما إذن قدر الظالم أن يظلمهم، غير أن هـذا الظلم مقدّر عليهم عند الله على يدي هذا الظالـم، فإذا كانت معرفتهم هـذه المعرفة، وكان معبودهم هذا الذي يزعمون أنهم يعبدونه هذا فعله بهم، فمتى يَصِلُ هؤلاءِ إلى معرفة الخالق، ومتى يدْعُونَه، ويسـتعينون به على ظالمهـم؟! إنما هم يَدْعون هـذا الذي يزعمون أنه قضى عليهم بهذا الظلم وقدّره...، وعلى هذا النحو أسـلمهم ربهم، وتركهم من التوفيق والتسـديد، وخذلهم، ولم ينصرهم على ظالمهم».

ومع هذا فلم ينقل عنه عليه السـلام أنه حاكم أو عاقب أيّ إنسـان على اعتقـاده بهذه المعتقدات الفاسـدة، بل كان يكتفـي بالمواجهة الفكرية من خلال المناقشة لهم، وكتابة الردود والرسائل، والسـعي لنشـر فكر أهل البيت عليهم السـلام الخالي من المعتقدات الباطلة؛ ومؤلفاته عليه السلام الكثيرة في أصول الدين خير شاهد على ذلك.

ويقول عليه السـلام مبيّنًا اعتقادَه في مسـألة الوعد والوعيد: «ثـم يجب عليه أن يعلمَ أنّ وعدَه ووعيدَه حقٌّ، مَن أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخلـه النار أبَدَ الأبد، لا مـا يقول الجاهلون من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين، ومَحَلِ المؤمنين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ﴿خَالِدِينَ فِيهَـا أَبَدًا﴾، ويقول: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[المائـدة:٣٧]، ففي كل ذلك يخبر أنه من دخل النار فهو مقيـم فيها غير خارج منها، فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسـأله العون والهدى، فإنّه وليُّ كل النعماء، ودافع كل الأسواء».

ويعتقـد الإمامُ الهادي عليه السـلام ويدين بأن الخليفة بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم هـو أمير المؤمنين علي عليه السـلام، «ثم يجب عليه أن يعلم أن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب أمير المؤمنين، وسيد المسـلمين، ووصي رسول رب العالمين، ووزيـره وقاضي دينه، وأحق الناس بمقـام رسـول الله صلـى الله عليه وآله وسـلم، وأفضل الخلـق بعده، وأعلمهم بما جاء به محمد، وأقومهـم بأمر الله في خلقـه، وفيه ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُـولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُـونَ الصّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُـونَ﴾[المائـدة:٥٥]، فكان مؤتـي الزكاة وهو راكع: علي بن أبي طالب دون جميع المسلمين».

ويرى عليه السـلام أن الأمر بعد ذلك في ولده الحسـن، ثم الحسـين، ثم في ذريتهمـا عليهما السـلام، كما قال عليه السلام: «ثم يجب عليه أن يعلمَ أنّ الحسنَ والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبيباه، وأنهما إماما عدل، واجبة طاعتهما، مفترضة ولايتهما..».

إلى أن قال: «ثم يجب عليه أن يعلمَ أنّ الإمامةَ لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين؛ بتفضيل الله لهما، وجعله ذلك فيهما، وفي ذريتهما، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذ ابْتَلَـى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ قَـالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّـاسِ إماما قَالَ وَمِنْ ذُرّيّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]..».

إلى أن قال عليه السـلام: «ثم قال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧]، وقال النبـي صلى الله عليه وآله: (إني تارك فيكم الثقلين

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)، وقال سبحانه: ﴿إِنمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣]، فبيّن الأمر سبحانه فيهم وأوضحه، ﴿لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٦٥]، ومحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وكذلك ذريته».

ويصرّحُ عليه السلام بنظرته لأهل بيت النبوة عليهم السلام بقوله: «والحمد للّه، وأنا متمسك بأهل بيت النبؤة، ومعدن الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن العلم وأهل الذكر، الذين بهم وُحِّد الرحمن، وفي بيتهم نزل القرآن، والفرقان، ولديهم التأويل والبيان، وبمفاتيح منطقهم نطق كل لسان، وبذلك حثّ عليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم بقوله: (إني تارك فيكم الثقلين لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، كتاب اللّه، وعترتي أهل بيتي، مثلهم فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى) فقد أصبحوا عندي بحمد اللّه مفاتيح الهدى، ومصابيح الدجى، لو طلبنا شرق الأرض وغربها لم نجد في الشرف مثلهم؛ فأنا أقفو آثارهم، وأتمثل مثالهم، وأقول بقولهم، وأدين بدينهم، وأحتذي بفعلهم».

ويؤكد عليه السلام على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: «وندين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأنّ نصرَ المظلوم والأخذَ على يد الظالم فرضٌ لازم، وحقٌّ واجب؛ لأنّ في ترك الأمر بالمعروف للحق إماتة، وفي ترك النهي عن المنكر للباطل حياة، ولذلك أوجبه اللّه على عباده، وفرضه عليهم فرضًا، بكل ما أمكنهم ولذلك قال ربُّ العالمين: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢]، وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ﴾[الحجرات: ٩]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة:٧١] مع آيات كثيرة تدل على ما قلنا، وتصحح ما شرحنا».

هذه عقيدة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام، التي صرح بها في كتبه ورسائله، واحتج لها؛ ومن طالع مؤلفاته عليه السلام وجد من ذلك ما يثلج الصدور.

• المذهب الفقهي عند الإمام الهادي (ع)

يعتبر فقه الشريعة الإسلامية الترجمة العملية للعبودية للّه سبحانه وتعالى، والوسيلة المثلى للإنسان المؤمن ليكون أكثرَ ارتباطًا بخالقه والمتفضل عليه، وهو السبيل لتنظيم حياة الإنسان مع نفسه ومجتمعه، فالفقه قد رسم له كل شيء في حياته حتى كيفية التعامل مع المخلوقات الصماء البكماء؛ ومن هنا كان لهذا العلم أهمية كبيرة عند علماء المسلمين، تأليفًا، وبحثًا عن الأدلة، واستنباطًا للأحكام.

وفي هذا الميدان برز الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام كواحدٍ من أئمة الفقه الذين شحذوا أقلامهم للتصنيف في علم الفقه، فشمل جميع أبوابه، وفصّل مسائله، يقول عنه الدكتور محمد أبو زهرة: «عكف على الفقه

يدرسه من كل نواحيه ومن كل مصادره وقام هاديًا مرشدًا يدعو إلى الله سبحانه إلى صراط مستقيم، فكان مرجعًا في الدين من كل الطوائف الإسلامية، والأمصار المختلفة يسألونه ويستفتونه وهو يرد عليهم برسائل قيمة أُثرت عنه يدافع فيها عن القرآن والسنة، ويبين الحق الذي يرد زيغ الزائغين».

وقد تميّز فقهُ الإمام الهادي عليه السلام بعدد من الميزات؛ منها:

- أنه نبع من ذات الدليل، واعتمد على وضوح البرهان، فنشأ في أجواء حرة بعيدًا عن تأثيرات الدول وإملاءات الحكام، حتى قال عنه الإمام المؤيد بالله عليه السلام - وهو أحد فرسان الفقه ومجتهدي الزيدية-: «كُنّا نهاب نصوصَ يحيى كما نهاب القرآن»، وقد شهد له أيضًا علماء المذاهب الأخرى، كابن حزم صاحب المحلى، فقال: «وليحيى هذا الملقب بالهادي رأيٌ في أحكام الفقه قد رأيته لم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد.. إلى آخره».
- أنّه لم يلجأ إلى التقليد في ما لم يوجد له نص صريح، بل اعتمد على نظره واجتهاده، كغيره من علماء أهل البيت عليهم السلام، وأئمة المذاهب الأخرى الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد.
- أنّه لم يأتِ بالمسائل الفقهية من واقع الدليل فحسب، بعيدًا عن الواقع العملي الذي يعيشه الناس، بل جمع بين فقه الأدلة وفقه الواقع، ولذلك نجده في مؤلفاته الفقهية يستخدم أسلوبًا يتناسب مع أهل زمانه، ويتكلم بلغة قريبة إلى أفهامهم.
- أنّه لم يختلف مع من سبقه من علماء أهل البيت عليهم السلام في أكثر المسائل، ولذلك نجده في كتاب «الأحكام» يأتي بقوله الفقهي، ثم يؤيده بقول جده نجم آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أكثر المسائل، ولا نجد بينهما اختلافًا.

ونجد أنّ الإمام الهادي عليه السلام لم يكن بعيدًا عن الآراء الفقهية لعلماء المذاهب الأخرى، بل كان أعلم بها من أهلها بشهادة علمائها، ولا يرى في اجتهاداتهم الفقهية جرمًا يعادون أو يقاطعون لأجله، وأنها مسائل فرعية لا يضرُّ الاختلاف فيها، ويدل على ذلك ما جاء في قصة الفقيه الشافعي، والتي تجدونها في طيّ هذه المجلة.

وقد حظِيَ فقهُ الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام بعناية خاصة، فَشُرِحتْ كتبُه، وخُرِّجت آراؤه الفقهية، ودُرِّست في بلاد اليمن وبلاد الجيل والديلم، ولا زالت تدرّس في اليمن إلى يومنا هذا.

• الأدب والشعر

كان للإمام الهادي إلى الحق عليه السلام حظُّه الوافر من الأدب العربي والشعر الفصيح، فهو الشاعر المتمكن، والأديب الأريب الذي شهر يراعه وسيفه معًا، فنصر بهما الحق، وأعاد للأمة مجدها؛ وقد جمع الإمام الحجة مجد الدين المؤيدي عليه السلام عددًا من روائع قصائده في كتاب «عيون المختار»، وشهد له بالتمكن والبراعة، فقال بعد أن نقل قصيدته الرائية إلى ولده المرتضى عليه السلام ما لفظه: «ولله دره ما أبلغها وأروعها وأبرعها، ولم أجد لشيء من الشعر ما وجدت لها من الرقة والتحنن واللطافة والروعة والجزالة والبطولة والبراعة والعلم والحكمة، ولم أتأثر بشيء من النظم كما تأثرت بها».

ومن الملاحظ أن الإمام الهادي عليه السلام لم يمتهن الشعر، ولم يجعله غايته كالشعراء، فقد كان له فيما هو فيه من تحمل المسئولية والجهاد مندوحة عن ذلك، ولكنّه اتكأ عليه واتخذه وسيلة ينظم من خلالها ثمين نصائحه للناس، ويبعث فيهم الحمية والنخوة، ويحيي فيهم الشجاعة والمسئولية، ويدعوهم إلى القرب من الله سبحانه وتعالى، فنراه يقول:

إذا المرء لم يجعل رضا اللهِ ربّه ... أمام رضاهُ خاب من كل جانبِ
وآب حسيرًا قد تهتك ستره ... ولم ينجُ من مستفظعات النوائبِ

ويعبر بالنظم عن موقفه من الحقِّ، ورسوخه عليه، وأنه الأمر الثابت الذي لا يمكن أن يتزحزح عنه مهما حصل، فيقول:

ولست بتاركٍ للحق حتى ... يطاع الواحد الفرد الودودُ
ونحكم بالكتاب بكل فجّ ... ويرجع عن تعديه العنيدُ
ولست بخاشعٍ يومًا لحربٍ ... وإن خشعت لهيبتها الأسودُ
ولست بقائلٍ ما دمت حيا ... كما قد قال في الحرب الرقودُ
أخو الفسق الدوانيقي لما ... تداخل قلبَه الرعبُ الشديدُ
تفرقت الظباء على خداش ... فما يدري خداشٌ ما يصيدُ

ونراه عليه السلام يتحسّر على حال الدين، وكيف أنّ الناس قد غفلوا عن إقامته، ويتعجب من ذلك:

دعوت الناس كلهمُ لحق ... وأكثرهم عن التقوى يحيدُ

ويقول في قصيدة أخرى:

نام الخلي وعينُ الدين في تعب ... غطّت عليها ولاة الجوْر بالحجبِ
والناس في غفلة عما أصيب به ... آل الرسول فكلٌّ غير مكتئبِ
حتى نهضتُ لدين الله محتسبًا ... والله يعطي جزيلاً كل محتسبِ
إذ لا أرى ثائرًا لله ينصره ... ولا نكوفا لدين الله ذا غضبِ
كيف القرار وقد أضحت معالم ما ... سَنّ الرسول كحد الصارم الجدبِ
أم كيف يرضى بسوم الخسف ذو كرم ... ممن له حسب قد صين بالأدبِ

ويقول وهو يحث الناس على الجهاد في سبيل اللّه:

فما العز إلا الصبر في حومة الوغى ... إذا برقت فيها السيوف اللوامعُ
ومن لم يزل يحمي ويَنْقِم ثاره ... ومن هو في الحالات يقظان هاجعُ
يقلب بطن الرأي فيه لظهره ... ويمضي إذا ما أمكنته المقاطعُ
ونحن بقايا المرهفات وسورها ... إذا كان يوم ثائر النقع ساطعُ
يموت الفتى منا بكل مهند ... وأسمر مسنون الشبا وهو دارعُ
فتلك منايانا وإنا لمعشر ... من الناس في الدنيا النجوم الطوالعُ

ويستنهض الهمم، ويشيد بمن ينصره لإحياء الكتاب والسنة، فيقول:

يـا حـي وادعـةَ الكـرام تأهبـوا ... فـي الديـن إن عليكـم إدلالـي
وبكـم أصـولُ على العـدو لأنكم ... أنتـم يميني فـي الوغى وشـمالي

ويقول في قصيدة أخرى:

وسـرتُ في حـيّ همدانٍ ويشـفعُها ... خـولان أهل النُّهى فـي جحفل لَجِبِ
وحـاشـد وذوي الأحـلاف قـاطبة ... والصّيـد صيد ثقيف سـاعة الغضبِ
حزب النبـي وحـزبـي بعـده فلهم ... حظان لـم يُجمعا يـومـًا لمكتسبِ
جـزاهـم الله عنـي كـل صالحة ... وحاطهم من شـقى الأغـلال واللهبِ

وكتب عليه السـلام قصيدة إلى الدّعام بن إبراهيم الأرحبي يحثه على الجهاد في سـبيل الله ويَذْكُرُ سوابق همدان مع أمير المؤمنين وأخي سيد المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، قال فيها:

انهض فقد أمكنتنـا فرصة اليمـنِ ... وَصِـلْ فضائـلَ كانـت أولَ الزمـنِ
وسابقاتٍ وإكـرامـًا ومكـرمـة ... كانت مع الطاهـر الهادي أبـي الحسن
ويـوم صفين والفـرسـان مُعلَمةٌ ... تخوض في غمرات الموت في الجشن
والـروع حام ويـوم النهـروان لكم ... والنقع مرتـفع بـالبيـض والحُـصُن
ونصرهـم لأمير المؤمنين علـى ... محض المـودة والإحيـاء للسنـنِ
وقـم فزد شـرفًا يعلو على شـرف ... فـي حـي همـدان والأحياء مـن يمنِ
ففيك ذاك بحـمـد الله نـعـرفـه ... إذ أنت ليث الوغى في السـلم والفتنِ
واسـتغنم الأمـر نهضًا يـا دعام له ... مـا دام روح حيـاة النفس فـي البدنِ

كما أنه عليه السـلام ينظم رسـائل التهديد والوعيد لأئمة الجور، من ذلك؛ أنه كتب مخاطبًا لولاة الجور من بني العباس المقيمين بأرض العراق:

ألا أبلـغ ولاة الجـور عنـي ... مقـالـة صـادق فيـمـا يقـولُ
بأنـي إن سَـلِمت لكـم قليـلا ... وتنسـيـنـي منـيـتـي العـجـول
ترونـي فـي كتايـب مرغمـات ... لأنفـكـم إذا حضـر الصقـيـلُ

وهنا ندرك أن الإمام الهادي إلى الحق عليه السـلام عاش مع الأدب والشـعر، كما عاش مع السيف، مجاهدًا بهما في سبيل الله، متكئًا عليهما لإصلاح ما اعوجّ من أمر الأمة الإسلامية، ناصحًا، ومربيًا، وداعيًا لنصرة الحق.

الإمام الهادي عليه السلام

إلى الحق

شهادات تاريخية

شهادات تاريخية

«الهادي الجليل الفارس الدّيّن الورع إمام الزيدية، وكان مصنفًا شاعرًا ظهر باليمن، مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين، وكان يتولى الجهاد بنفسه، ويلبس جبة صوف، وكان قشفًا رحمه الله» [النسابة علي بن أبي الغنائم العمري: المجدي في أنساب الطالبيين ص٢٣١].

يقول الحافظ ابن حجر حيث فسر بهم الخبر النبوي المروي في البخاري وغيره، وهو (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان)، فأفاد أنّه صدق الحديث ببقاء الأمر في قريش باليمن من المائة الثالثة في طائفة من بني الحسن، قال: «ولا يتولى الإمامة فيهم إلا من يكون عالمًا متحريًا للعدل».

إلى قوله: «والذي في صعدة (ويقصد الإمام الهادي) وغيرها من اليمن، لا شك في كونه قرشيًا؛ لأنّه من ذرية الحسن بن علي».[ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج١٣/ ص١١٧]

«يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو الحسين.. ويلقب بالهادي، وُلِد في المدينة في سنة خمس وأربعين ومائتين، وكان عالمًا عاملًا، وله مصنفات كالأحكام والمنتخب والتفسير في معاني القرآن، توفي بصعدة في شهر ذي الحجّة سنة ثمان وتسعين ومائتين» [العلامة أحمد بن محمد الأدنه: طبقات المفسرين، ص٤٥].

«وكان جاء إلى اليمن وقد عمّ بها مذهب القرامطة والباطنية، فجاهدهم جهادًا شديدًا، وجرى له معهم نيف وثمانون وقعة لم ينهزم في شيء منها، وكان له علم واسع، وشجاعة مفرطة». [العلامة يحيى بن أبي بكر العامري: الرياض المستطابة، ص٣٠٧]

«ومنهم القائمون بصعدة من أرض اليمن؛ فمنهم: جعفر الملقب بالرشيد، والحسن المنتخب، والقاسم المختار، ومحمّد المهدي، بنو أحمد الناصر بن يحيى الهادي بن الحسين بن القاسم الرسي ابن إبراهيم طباطبا؛ وليحيى هذا الملقّب بالهادي رأي في أحكام الفقه، قد رأيته، لم يبعد فيه عن الجماعة كل البعد».. إلى آخره».[الإمام علي بن حزم الظاهري: جمهرة أنساب العرب ص٤٤]

«وكان قدوم الهادي يحيى بن الحسين إلى صعدة لستٍ خلت من صفر سنة أربع وثمانين ومائتي سنة، وكان بين خولان فتنة عظيمة، فأصلح بينهم واتفقت كلمتهم، فملّكوه بلاد خولان، وساروا معه إلى اليمن حتى ملكها»[المؤرخ أحمد بن محمد القرطبي: التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب]

«وتسمى بالهادي أبي الحسن، وملك نجران وتلك النواحي، وخطب له بأمير المؤمنين وكان حسن السيرة». [المحدث الذهبي: تأريخ الإسلام، ج٢٢/ ص٣٢١]

«عكف على الفقه يدرسه من كل نواحيه ومن كل مصادره وقام هاديًا مرشدًا يدعو إلى الله سبحانه إلى صراط مستقيم، فكان مرجعًا في الدين من كل الطوائف الإسلامية، والأمصار المختلفة يسألونه ويستفتونه، وهو يرد عليهم برسائل قيمة أُثرت عنه يدافع فيها عن القرآن والسنة، ويبين الحق الذي يرد زيغ الزائغين». [العلامة محمد أبو زهرة: الإمام زيد ٥٠٩]

«وقد سار الهادي في حكم البلاد اليمنية على سنة العدل مما جعل الأهلين يرون فيه مظهرًا لحكم الإسلام، ومصدرًا لعهد الخلفاء الراشدين الأولين». [العلامة محمد أبو زهرة: الإمام زيد، ص٥١٥]

«إن أعظم مقاصده إقامة حكم إسلامي، وجمع المسلمين على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه، وقد كان يسعى جهده لجمع شمل المسلمين، وإصلاح أمورهم فيما بينهم» [العلامة محمد أبو زهرة: حياة الإمام زيد، ص٥١١].

«وقد عمل على نشر العدالة بكل شعبها، وعلى رأسها العدالة الاجتماعية، ولذلك نظم بيت المال، وجمع الزكوات والجزية، ووزعها بين أهلها، وأوجب صرف ربع ما يجمع بين أهل القرية التي جمعت الزكاة منها، وسار في تنظيم بيت المال إلى أقصى مداه» [العلامة محمد أبو زهرة: حياة الإمام زيد ص٥١٢].

«لقد كان الهَادِي مثلًا لصفات القائد والقدوة الحسنة لأتباعه، مترفعًا عن سفاسف الأمور، وعن المتع، شجاعًا في المعارك والأهوال، وفي تطبيق ما يؤمنُ به ويدعو إليه، معتدلًا حتى مع أعدائه»[القاضي عبدُالله عبد الوهاب الشمَاحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص١١٦].

«ولم يكن في حربه يتبع هاربًا ولا يجهز على جريح، وإن طلب المهزومون الأمان أمّنَهم ورد إليهم أسلابهم، وكان يتشدد على عسكره ألا يدخلوا الزرع، ولا يستحلوا لأنفسهم شيئًا من ثمار المزارعين، وحينما اغتصب بعض جنده في (أثافت) شيئا، من الخوخ غضب وثار واحتجب عنهم وهَمّ بتركهم، وقال لا يحل لي أن أحارب بمثل هؤلاء، ولا أكون كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره، والله ما هي إلا سيرة محمد أو النار، ولم يسكن غضبه حتى أبدوا ندمهم وتوبتهم عما فعلوا.

سُئلت: ألا تعتقد في أن هناك مغالاة من أتباعه في إضفاء هذه الأوصاف عليه؟

فقلت: لو لم يكن ذلك حقًا لما كانت موالاته إلى يومنا هذا، ولَافتضح المستور كما تفتضح سير الملوك بعد موتهم مهما خلعوا على أنفسهم أو خلعت بطانتهم عليهم من تمجيد، فشتان بين الأئمة وبين الملوك، وشتان بين أتباع يوالون إلى اليوم وبين بطانة تنافق زمن السلطة». [أحمد صبحي ـ أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية : علم الكلام ـ الزيدية ـ ص١١٤]

«إنها سيرة نبي.. لا سيرة إنسان عادي، أشهد أنه من أفذاذ البشرية، وعظماء الإنسانية» [الأديب أحمد بن عبد الرحمن المعلمي: إمام اليمن أحمد حميد الدين ص١٢٣]

«وإلى جانب الثراء الفكري الذي نلمسه عن الإمام يحيى من الكتب والرسائل التي بقيت لنا من آثاره الفكرية، فلقد كان رجلَ سيفٍ وشجاعة وقتال... ولقد كانت مقدرته الحربية تمتاز بجوانبها العملية إذ كان يشارك بنفسه في المعارك والقتال». [محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد, ج٢/ ص١٩]

«الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن طباطبا، خُطب له بإمرة المؤمنين في حال أبيه،.. وبويع بعده لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين، والخليفة إذ ذاك المعتضد، وكان أول ما عرف من أدبه، وعلم من شرف مطلبه أن أهديت إليه جارية تليق به، فقال:

كفّي لحاظك ليس هذا وقتها
بل وقت كلّ مهنّد وسنان
أمطاعن الآساد في غاباتها
حاشا ترود مرابض الغزلان

ثم أعادها إلى سيدها، وقال له: هذه بضاعتك ردّت إليك، وهذا نظير ما رمته من الفائدة في إهدائها، وله مصنفات في الفقه وأدب طائل، وتوفي بصعدة في ذي الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين» [المؤرخ أحمد بن يحيى العمري: مسالك الأبصار، ج٢٤/ ص٣٩]

«ولقد قضى الإمام الهادي عمره كله لتلك الغاية النبيلة التي أعلنها في مبدأ أمره، عاش حياته كلها جهادًا ورضًا، لم يدخر لنفسه فيها درهمًا ولا دينارًا، ولم يسعَ لملك ولا سلطان، وما تناقضت أفعاله مع أقواله يومًا من الأيام، وإنما ظلت حياته كلها نسقًا واحدًا ونفحًا صادقًا منذ أن خرج لإعلاء كلمة الحق حتى لقي الله» [عبدالفتاح شايف: الإمام الهادي ص ١٢٩]

«أما يحيى الهادي بن الحسين بن الرسي ويكنى أبا الحسين، كان إمامًا من أئمة الزيدية جليلًا فارسًا ورعًا مصنفًا شاعرًا، ظهر باليمن ويلقب بالهادي إلى الحق، وكان يتولى الجهاد بنفسه ويلبس جبة صوف، له تصانيف كبار في الفقه قريبة من مذهب أبي حنيفة» [المؤرخ النسابة أحمد بن علي المعروف بأبن عنبة: عمدة الطالب ص١٧١]

ولا أكون كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره،
والله ما هي إلا سيرة محمد أو النار

الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام

الملف الجهادي

الجهاد
في فكر الإمام الهادي

- **فريضة الجهاد**

إنّ الجهادَ فريضةٌ من فرائض اللّه العظمى، كما بين ذلك القرآن الكريم، وجاءت به السنة النبوية، وعلى هذا سارَ أئمةُ أهل البيت عليهم السلام، وفي طليعتهم الإمامُ الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام، وقدوتُهُم في ذلك رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، الذي شَهِدَتْ حياتُه الكثير من الغزوات والسرايا، وكان في طلائع المجاهدين وفي مقدمة الصفوف.

وللأسف الشديد فإنّ الجهادَ عبرَ التاريخ قد تعرّضَ لكثير من التشويه والتحريف من قِبَلِ بعض الحركات المنتسبة للإسلامية، كالخوارج والقرامطة قديمًا وداعش والقاعدة أخيرًا، وفي المقابل اختار الكثيرون طريقة أخرى، وهي طريقة القعود وترك الجهاد وإيثار السلامة؛ وإذْ ساهمت داعش ومثيلاتها في تشويه الإسلام، وتقديم صورة غير حقيقية عن خاتمة الأديان بتبنيها الجهاد على طريقة الذَبْح والسّحل، فقد ساهم أيضًا القاعدون في تَغَلُب دُوَل الظلم وضَعْفِ المسلمين.

وبين هاتين الفئتين نجد من أعطوا للجهاد في سبيل الله حقّه ومستحقه، ومن أبرز هؤلاء: الإمام الهادي عليه السلام، الذي قدّم في مؤلفاته وأطروحاته حول الجهاد وحياته العملية منهجًا سليمًا بعيدًا عن كلّ ما تقدم من إفراط وتفريط، وهي رؤيةٌ نابعةٌ من روح الإسلام النقي الصافي كما تبنته مدرسة أهل البيت، ابتداءً من الإمام علي بن أبي طالب؛ الذي أُخِذَت عنه أحكامُ قتال الباغين وشهد سيفُه هدم معاقل الكافرين المعتدين، والباغين المتمردين.

• وجوب الجهاد

إنّ الجهادَ في سبيل الله أمرٌ ليس للعباد أن يقعدوا دونه، وليس عبادةً نافلة يتوقفُ أداؤها على رغبة المسلم، بل هو فريضةٌ شرعية قام بها الأنبياء ودعوا إليها، بل هو أفضل الفرائض وأقدسُها؛ وفي ذلك يقول الإمام الهادي عليه السلام في مجموع رسائله ج٢/ ص١١٦: «وكان أفضل ما افترض الله عليهم، وجعله حجة مؤكدة فيهم؛ الجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف الأكبر، والنّهي عن التظالم والمنكر، ولذلك امتدح الله به الأنبياء المرسلين، وذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ويقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، ويقول سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويقول تعالى أمراً منه لجميع المسلمين: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]».

• فضل الجهاد

إذا كان الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر أعظمَ مبدأٍ في الإسلام؛ لما يترتب عليه من نشر الفضيلة وقمع المنكرات، فإنّ الجهادَ بالسيف والنفس هو أسمى درجاته وأشرفها؛ يقول الإمام الهادي في مجموع رسائله ج٢/ ص١١٧: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا ينال إلا بالإقدام والتصميم، والنية والاعتزام الكريم، على الجهاد في سبيل الله، وتوطين الأنفس على مُلاقاة أهل الظلم والطغيان، فحينئذٍ يَنالُ ذلك، ويُؤَدّي فرض الله من كان كذلك، وهو الجهاد في سبيله، وفي ذلك ما يقول في واضح التنزيل: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الّذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّه وَرَسُولِه وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّه بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللّه وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ـ١٣]، ويقول: ﴿وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّه لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ولفضل الجهاد ما أمر الله نبيه عليه السلام بالتحريض عليه للعباد، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ﴾[الأنفال: ٦٥]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّه مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩ـ٧٠] وما ذكر الله من تفضيل الجهاد؛ فأكثر من أن يُحيط به كتاب، وهو معروفٌ عند من رُزِقَ فِهمَهُ من ذوي الألباب..».

• غايات الجهاد

يَختلفُ الجهادُ في سبيلِ الله في غاياته ودواعيه عن الحروب التي تقودها الدول العظمى، كما حصل في الحرب العالمية الأولى والثانية، وكما هو الحال في غزو أمريكا لأفغانستان والعراق، واحتلال الصهاينة لفلسطين، كما أنه يختلف عن ما قدمته بعض الحركات المنحرفة: كداعش والقاعدة من سَلْخٍ وذبح واستباحة للأعراض والأموال.

وذلك لأن الجهاد في مفهومه الإسلاميّ ليس وسيلة لبسط النفوذ، ولا أداةً لإخضاع الشعوب، واستغلال خيراتها؛ وإنّما هو وسيلة لصيانة كرامة الأمم، وحفظ خيراتها عن أن تنالها أطماع المستكبرين؛ فالجهاد السدُّ المنيع الذي تتحطم عنده آمال الغزاة والطامعين؛ وقد تناول الإمام الهادي عليه السلام أهداف الجهاد وثمراته في مجموع رسائله ج٢/ ص١١٨، فقال: «وكيف لا يكون للجهاد في سبيل الله فَضْلٌ على جميع أعمال المؤمنين وبه يحيا الكتابُ المنير؟ ويُطاع اللطيف الخبير، وتقوم الأحكام، ويُعَزُّ الإسلام، ويأمن الأنام، ويُنصر المظلوم، ويتنفس المهموم، وتُنفى الفاحشات، ويعلو الحق والمحقون، ويخمل الباطل والمبطلون، ويُعَزُّ أهل التقوى، ويُذَلُّ أهل الردى، وتشبع البطون الجائعة، وتكسى الظهور العارية، وتُقضى غرامات الغارمين، وينهج سبيل المتقين، وينكح العزاب، ويُقتدى بالكتاب، وترد الأموال إلى أهلها، وتفرق فيما جعل الله من وجوهها، ويأمن الناس في الآفاق، وتفرق عليهم الأرزاق».

ويقول في موضع آخر ج٢/ ص١٣٣: «وكيف لا يكون الجهاد أعظم فرائض الرحمن، وهو عام غير خاص لجميع المسلمين، وعَملُ من عمل به شامل لنفسه ولغيره من المؤمنين؛ لأنّ الجهاد عزٌّ لأولياء الله، مخيف لأعداء الله، مُشبع للجياع، كاسٍ للعراة النّياع، نافٍ للفقر عن الأمة، مصلحٌ لجميع الرعية، به يقومُ الحق، ويموت الفسق، ويرضى الرحمن، ويَسْخَطُ الشيطان، وتظهر الخيرات، وتموت الفاحشات».

وفي هذا الكلام العظيم يبينُ الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام ثمرات الجهاد وغاياته السامية؛ والتي يمكن أن نُلَخِصَها في النقاط الآتية:

- إحياء القرآن الكريم بتطبيق آياته.
- طاعة الله تعالى وتنفيذ أحكامه.
- عزة الإسلام فلا يصبح المسلمون مطمعًا سهلًا ولقمة سائغة للمستكبرين.
- يأمن العباد ويُنصر المظلوم والمهموم.
- إزالة المظاهر السلبية والمعاصي والفاحشات.
- سيادة النظام والحق، وإزهاق الباطل وأهله، بما يحقق الأمن والاستقرار للأمة.
- إنهاء مظاهر الحاجة والعوز والفقر: بإشباع البطون الجائعة وكسوة الظهور العارية، وقضاء ديون الغارمين وتحقيق الرفاه.
- صون الحقوق، وردُّ الأموال إلى أهلها، وتفريق ثروات الشعب وخيراته بالسوية والعدل.

ومن خلال النقاط السالفة الذكر التي ذكرها الإمام الهادي عليه السلام يظهر لنا جليًا أن الجهاد في سبيل الله ليس وسيلةً لفرض الدين على الناس، أو استعباد الشعوب، أو مصادرة حريتها وحقوقها، بل على العكس، فهو وسيلة دفاعية تحفظ به الأمة كرامتها وعزتها ومقدراتها.

• الجهاد مصدر ألفة

يُقَدِم الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام للإمة الإسلامية حلًا فعليًا لمعالجة الخلاف والتفرق والتشرذم الحاصل في أُمّة الإسلام، وذلك من خلال إقامة فريضة الجهاد، فيقول في مجموع رسائله ج٢/ ص١١٦ بعد الكلام السابق: «وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أَلّفَ الله بين المؤمنين، وجعلهم إخوة عليه متوالين، وذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٧١]، وبترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذَمّ الله المنافقين والمنافقات حين يقول: ﴿وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]».

والجهاد في سبيل الله هو أعلا مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو سنام الإسلام كما قال النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

• الصبر على مشقة الجهاد

بلا شك أنّ الجهاد بطبيعته ليس أمرًا مرغوبًا للنفوس؛ لما فيه من سفك الدماء، وقد قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ ومع هذه المشقة يجب على كل مسلم أن يروّض نفسَه على الجهاد، ويكسر رغبتها في القعود؛ لأن في الجهاد إقامةً للدين، وصلاحًا للأمة الإسلامية وللشعوب بمختلف أديانها؛ يقول الإمام الهادي عليه السلام في مجموع رسائله ج١/ ص١٦٨: «والجهاد قَسْرٌ، تقسر النفوس على القيام بالجهاد قسراً، وفي الجهاد فضل الدرجات، والبعد من النقمات».

ويقول في موضع آخر ج٢/ ص١١٧ وهو يشرح كيف يتجاوز الإنسان المثبطات عن الجهاد: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا ينال إلا بالإقدام والتصميم، والنية والاعتزام الكريم، على الجهاد في سبيل الله، وتوطين الأنفس على مُلاقاة أهل الظلم والطغيان، فحينئذٍ ينال ذلك، ويؤدي فرض اللّه من كان كذلك».

والإنسان المؤمن بحقٍ هو من يبذل نفسه لله في كل حالاته، في اليسر والعسر، في الراحة والتعب، في المكره والمنشط؛ والمؤمن المجاهد بائع نفسه من الله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، والثمن ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

• ضرورة القيادة

حتى لا يصبح الجهاد وسيلة لتحقيق الأطماع، أو يُستخدم كأداة لممارسة الانتقام، وتصفية الحسابات بين المسلمين، فقد اشترط الإسلام أن يكون الجهاد تحت قيادة ربانية مؤهلة علميًا وسياسيًا ودينيًا، تكون هذه القيادة قادرة على الحفاظ على فريضة الجهاد حتى لا يخرج مساره الذي رسمَه الله له، وقد تناول الإمام الهادي هذه القضية في مجموع رسائله، ج٢/ ص١١٩: «ثم إنّ الله ـ جل جلاله عن أن يحويه قولٌ أو يناله ـ حَظَرَ الجهادَ، مع جميع من خلق من العباد؛ إلا من اصطفى وأتمن على وحيه من عترة رسوله صلى الله عليه وعليهم، الذين هدى بهم الأمة من الضلالة والهلكة، لِمَا في الجهاد من القتل والقتال، وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وهتك الحريم، وغير ذلك من الأحكام، وذلك فلا يكون إلا بإمام مفترض الطاعة، وذلك لا يكون إلا من آلِ محمد صلى الله عليه وعليهم، الذين استنقذ الله بهم الأمة من شفا الحفرة، وجَمَعَ بهم كلِمَتَها، وألّفَ بين قلوبها، من بعد الافتراق والاختلاف، والتشاجر وقلة الائتلاف، فأصبحوا بنعمة الله على الحق مؤتلفين، ولما كانوا عليه من الكفر مجانبين، يعبدون الرحمن من بعد عبادة الأوثان، ويقرون بمحمد عليه السلام، داخلين في النور والإسلام، ناجين من عبادة الشيطان، تالين لآيات القرآن، يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، ويقرون بالربوبية للواحد الجبار.

قد اختار الله لهم منهم أئمة هادين، وجعلهم من ولد نبيه خاتم النبيين؛ وفي ذلك ما يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] من أهل النبوة، وموضع الرسالة، ومعدن الحكمة، وبيت النجاة والعصمة، الذين أمرَ الخلق باتباعهم، والكينونة معهم دون غيرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وفيهم وفي آبائهم ما يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[المائدة: ٥٥] فجعل الولاية لهم خاصة، وثبت الإمامة فيهم، وأنزل الوحي عليهم بذلك.

وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض). فبين بذلك أنّه من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى.

وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما أحبنا أهل البيت أحد، فزلت به قدم إلاّ ثبتته قدم، حتى ينجيه الله يوم القيامة).

وفيهم يقول: (إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى).

وفيهم يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فجعل طاعتهم موصولة بطاعة رسوله، وطاعة رسوله موصولة بطاعته، ومعصيتهم مقرونة بمعصية نبيه، ومعصية نبيه مقرونة بمعصيته، فمن عصاهم فقد عصى الله سبحانه ورسوله، ومن أطاعهم فقد أطاع الله».

• سبب التخلف عن الجهاد

يذكر لنا الإمامُ الهادي عليه السلام ظاهرةً كانت في عهد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام، حين رفض جماعة من الشيعة الجهاد بين يديه، واعتذروا بأن الإمام هو ابن أخيه جعفر الصادق عليه السلام، وهم من باتوا يُعرفون فيما بعدُ باسم الرافضة، ويذكر الإمام الهادي أن سبب ظهور هذه الجماعة ليس التباس الحق عندهم وإنما حبُّهم للبقاء، وإيثارُهم الدنيا وهروبُهم عن الجهاد، فيقول في ج١/ ص١٠٥: «وإنما فرّق بين زيد وجعفر قوم كانوا بايعوا زيد بن علي، فلما بلغهم أن سلطان الكوفة يطلب من بايع زيدًا ويعاقبهم، خافوا على أنفسهم، فخرجوا من بيعة زيد ورفضوه مخافة من هذا السلطان، ثم لم يدروا بِمَ يحتجون على من لامهم وعاب عليهم فعلهم، فقالوا بالوصية حينئذٍ، فقالوا: كانت الوصية من علي بن الحسين إلى ابنه محمد، ومن محمد إلى جعفر، ليموهوا به على الناس، فضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، ابتغوا أهواء أنفسهم، وآثروا الدنيا على الآخرة، وتبعهم على قولهم هذا من أحبّ البقاء وكَرِهَ الجهاد في سبيل الله».

وهذه الحالة تنطبق على أكثر الرافضين للجهاد في سبيل الله تعالى، فحبُّ النعيم الزائل أعمى بصائرهم، وإيثار الدنيا أخلدهم إلى الأرض.

• حكم التخاذل عن الجهاد

يُبَيِّنُ الإمام الهادي عليه السلام عاقبةَ المتخلفين عن فريضة الجهاد، وفداحةَ جُرْمِهم بتقصيرهم في هذه الفريضة، فيقول عليه السلام في كتاب الرد على المجبرة والقدرية من مجموع رسائله ج٢/ ص٣٩: «أنْ نقولَ لهم: خَبِّرونا عن قول الله تبارك وتعالى فيما حكى عن الفاسقين الظلمة، المنافقين الفجرة، المتخلفين عن الجهاد مع رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وسيَحْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: ٤٢]».

ويَعْتَبِر عليه السلام المُتخاذلَ عن الجهاد من أشرّ الأشرار، وأنّ كل أعماله من صلاة وصيام لا معنى لها وغير مقبولة، فيقول في مجموع رسائله ج٢/ ص١٣٣: «فلْيَعْلَم كُلُّ عالم أو جاهل، أو من دعي إلى الحق والجهاد فتوانى، وتشاغل، وكَرِهَ السيفَ والتعب، وتأوّلَ على الله التأويلات، وبسط لنفسه الأمل، وكَرِهَ السيف والقتال، والملاقاةَ للحُتُوف والرجال، وآثر هواه على طاعة مولاه،

فهو عند اللطيف الخبير، العالم بسرائر الضمير؛ من أشر الأشرار، وأخسر الخاسرين».

ويقول بعد ذلك: «إن صلاته وصيامه، وحجه وقيامه بُور، لا يقبل الله منه قليلًا ولا كثيرًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا. وإنه ممن قال الله سبحانه فيه حين يقول: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ـ ٤]. وكيف يجوز له الإقبال على صغائر الأمور من الصالحات، وهو رافض لأعظم الفرائض الواجبات؟! وكيف لا يكون الجهاد أعظم فرائض الرحمن؛ وهو عام غير خاص لجميع المسلمين؟!».

ويبين عليه السلام في موضع آخر سبب كون المتخلف عن الجهاد من أشر الأشرار، فيقول في ج٢/ ص٢١٧: «وكيف لا يكون مَن منع الجهاد، وتعلل بالأموال والأولاد، من أشر العباد عند ذي العزة والأياد؛ وقد هَتَكَ الدين، وبَايَنَ ربّ العالمين، وشرك في دماء المسلمين، وقوى بذلك جميع الفاسقين؟! فكان بخذلانه للدين، وقعوده عن المحقين؛ شريكًا للكافرين، ومعاضدًا للفاجرين؛ إذ كانت ـ بخذلانه ـ نيته وسطوته على المحقين، بتخلف المتخلفين مُظَاهِرَة؛ فكان محلُّ الخاذل ـ بخذلانه وقعوده عند الله ـ محلّ المحارب بمحاربته، لا ينفك الخاذل للمؤمنين، من المشاركة للفاسقين، فيما نالوه من المتقين، في حكم أحكم الحاكمين».

ثم يخاطب الهادي عليه السلام العلماء والمرشدين الذين نحو منحى التثبيط عن الجهاد في سبيل الله، والتقليل من أهمية هذه الفريضة، فيقول في ج٢/ ص١٣٤: «فأين بالجهلة العميين، أو العلماء المتعامين؟ كيف يقيسون شيئًا من أعمال العباد؛ إلى ما ذكر الله سبحانه من الجهاد؟! هيهات هيهات بَعُدَ القياس، ووقع على الجهلة الالتباس، وحبطت بلا شك أعمال المختلفين، وخسر الراكنون إلى الدنيا، المؤثرون لما يزول ويفنى، المتشبثون بالأموال والأولاد والأهلين، وهم ـ أَحَدَ اليومين ـ لذلك مفارقون، ولما تشبثوا به تاركون، وعما أثروه على ربهم والجهاد في سبيله رائحون، وفي أولئك ومن كان من الخلق كذلك؛ ما يقول الرحمن الرحيم، فيما نزل من الفرقان العظيم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤]».

وهذا أوضح بيان في سوء التخذيل عن الجهاد في سبيل الله، والتثبيط عن نصرة الدين والمستضعفين؛ والله المستعان.

• خلاصة القول في الجهاد

نختم هذا المقال بهذه المقطوعة العظيمة من كلام الإمام الهادي عليه السلام التي تعتبر بمثابة الخلاصة لكل ما تقدم؛ يقول عليه السلام في ج٢/ ص١٥٠: 'وهو الجهاد في سبيله، والمباينة لمن عَنَدَ عن دينه، وفي ذلك ما يقول جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ

الّـذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيْمُ﴾ [التوبة:١١١]، ثـم قال تبـارك وتعالى فيما يذكر مـن تعظيم ما ذكرنا من الجهاد الكريم: ﴿لا يَسْـتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْـنَ غَيْرُ أُولِي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِيْنَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِيْنَ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ أَجْراً عَظِيْماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيْماً﴾ [النسـاء:١٩٥ ـ ١٩٦]، ثم قال سبحانه فيما أمر به عباده من النفير في سبيله، والإحياء لشرائع دينه: ﴿انْفِـرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيْ سَبِيْلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١]، ثم قال تخويفًا للقاعدين، وإعذارًا وإنذارًا للمتربصين، واحتجاجًا على المتخلفين؛ عن واجب ما أوجب أحكم الحاكمين، وتبيينًا لفضل المنابذين؛ لمن نابذ شرائع الدين، وجهد في إبطال الحق واليقين، وكان ضدًا مدافعًا للحق، وكهفًا وسـندًا للفسـق: ﴿لاّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُـمْ عَذَاباً أَلِيْماً وَيَسْـتَبْدِلْ قَوماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [التوبة:٣٩]، ثم ذكر سـبحانه فذمّ ذا التّعـلاّت، وأهل التأويلات الباطلات، فأخبر أنه لا عـذر لهم فيما به يعتـذرون، ولا حجة لهم فيما فيه يتأولون، من التعلق بالشبهات، والتسبب لمنال الفكاهـات، والتلذذ بمقاربـة الأولاد والزوجات، وجميع الأموال من التجارات، فقال سبحانه تحذيرًا لهم، وتنبيهًا عن وسـنتهم، وتيقظًا لهم من رقدتهم: ﴿قُـلْ إِنْ كَانَ آبَآؤُكُـمْ وَأَبْنَآؤُكُـمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيْرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِيْ سَبِيْلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـقِيْنَ﴾ [التوبة:٢٤]، سمّى من كان كذلك، أو ضرب لنفسه تأويلًا في ذلك فاسقين، وأوجب لهم ما أوجب على الفاجرين، مـن عذاب الجحيم، والخلود في العذاب الأليم، ثم قال سـبحانه ترغيبًا لعباده المؤمنين، وإخبارًا لهم بما أعد لهـم على الجهاد من الثـواب المبين: ﴿يَا أَيُّهَـا الّذِيْنَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُـمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِيْ سَـبِيْلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُـمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِيْ مِـنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَـاكِنَ طَيِّبَةً فِيْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيْمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ وَبَشِّـرِ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [الصف:١٠ ـ ١٣]، صدق الله سـبحانه إن ذلك للتجارة الكبرى، والكرامة الجليلة العظمى، والحظ العظيم، والأمر الجسيم؛ الذي جل ذكره وعظم قدره، وحسن عند الله مآب فاعله، وجل لديه سبحانه خطر القائم به، جعله له سـبحانه مؤتمنًا على خلقه، ومرشـدًا إلى أمره، خصه بخـواص الكرامة الكاملة، وأعطاه العطيـة الفاضلة، وجعله حجةً شـاملة، ونعمةً على الخلائق دائمة. فنسأل الله إيزاع شكره، وبلوغ ما نؤمل مـن طاعته، فإن ذلك أفضل ما أعطى الخلق من العطاء، وأعظم ما بلغه بالغ من الرجاء، ونسأل الله أن يصلي على محمد عبده ورسوله المصطفى، وأمينه المرتضى، وخيرته مـن خلقه، وأمينه على وحيه، وصفوته من بريته، صلى الله عليه وأهل بيته الطيبين الأخيار، الصادقيـن الأبرار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا".

جهود الإمام الهادي الجهادية

إنها عزيمة نبوية لم يكنْ لها حدود، ونفسٌ عصامية علوية ما هانت ولا استكانت في سبيل الله، وكأنها راية بدر في وجه أبي سفيان ومَرَدَةِ الكفر، وسيفُ عليٍّ ذي الفقار الذي اجتثّ به بنيانَ الضلال وأئمةَ الفسق والطغيان.

هذا هو يحيى بن الحسين عليه السلام في محراب الجهاد، الذي ما استسلم لنفسٍ غريزية، ولا انجرّ خلفَ رغبةٍ انتقامية، ولا طارَ به هواه وراءَ بسطِ نفوذ أو إخضاع بلد من البلدان، بل كان جهادُه ككلِّ سيرتِه وفقَ العدل والقسط، وتحت قانون الحق والشرع، فلا نجد في مسيرته الجهادية موضعًا للسيف إلا في وجه المستكبرين والمعاندين، ومَن يَنْصِبُ له الحرب، ويعلنُ عليه التمرد ممن أسلموا له القيادة، وانضووا تحت لوائه، وجعلوا له العهود والمواثيق.

ولا نجد إعلانه للحرب إلا استجابة؛ لصرخة مظلوم أو ردِّ حقٍّ لمحروم؛ وحروبه ومعاركه شاهدة على ذلك، وأسبابها جلية في كتب التاريخ، كشمس الضحى في رأد السماء؛ وهنا سنقف على بعض تجليات تلك الحقيقة في شخصيته عليه السلام:

• لم يدخل بلدًا إلا بطلب أهلها

في حركة الإمام الهادي عليه السلام الجهادية يجد القارئ والسامع وكلُّ ذي لبٍّ أبلغَ معاني السموِّ والكمال، وأنبل الصفات النبوية في التعامل، فمع تمكن الهادي عليه السلام، وامتلاكه القوة العسكرية، إلا أنه لم يرفع سيفَه ليُخْضِعَ شبرًا لسلطانه، ولم يَدْخلْ بلدًا إلا بعد استدعاء أهلها له؛ فإذا أحسّ منهم الجفوة، واستثقالَ الحق خرج عنهم قاليًا وتركهم مختارًا؛ ليواجهوا عواقب جفوتهم بأنفسهم.

ومن ذلك أن أهل صنعاء لما طلبوا منه أن يقْدُم إليهم؛ ليخلِّصهم من القرامطة، لبّى دعوتهم، ودخلها في المرة الأولى، وتمكن من هزيمة القرامطة وإخراجهم منها، ثم إن نفقات جيش الإمام الهادي زادت، فاضطر أن يطلب من أهل صنعاء أن يعينوه بقرضٍ يغطي به نفقة العسكر، فامتنعوا، فلم يُجبرْهم عليه السلام بالقوة مع تمكنه من ذلك، ووجود الضرورة الملحة لأجل حمايتهم، بل عزم على العودة إلى صعدة بعد أن ألقى على أهل صنعاء نصيحة المشفق، وكشف لهم عواقبَ الخذلان: «والله لتمنوني فُوَاق ناقة (الفترة الزمنية ما بين الحلبة الأولى والثانية)، ولتباعنّ نساؤكم بالدينار والدينارين والثلاثة، وليضربنكم الله بلباس الجوع والخوف، .... ليس ما ذكرت لكم من بيع الحرم منا ولا من بني طريف ولا من بني يعفر، ولتعرفُنّ صدقَ قولي قريبًا جزاءً من الله على فعلكم وخذلانًا منه على صنيعكم».

ثم تدور الأيام وتمضي الساعات، وأهلُ صنعاء في غفلة وجهل، فإذا بعلي بن الفضل القرمطي يباغتهم في دارهم، فيقتل رجالَهم، ويبيع نساءَهم، فلا يجد وجهاؤهم وكبراؤهم إلا اللجوء إلى الإمام الهادي عليه السلام للاستغاثة به، فيذهبون إليه مهرعين، يتوسلون إليه أن ينقذهم من البلاء الذي حلّ بهم.

فلم يستغلّ الإمام الهادي ذلك الموقف فيُذكّرهم بسوء صنيعهم، ولا وبّخَهم بجهل عصيانهم وعدم الاستماع لنصحه، وإنما طلب منهم المعونةَ بنفقة العسكر؛ ليتمكنَ من محاربة القرامطة؛ فبذلوا له النصرة، وأعطوه أمرهم، وملكوه على بلادهم، وعَقَدَ ملوكُ صنعاء من اليعفريين وبقية وجاهات اليمن مع الإمام الهادي على ذلك اتفاقًا.

وبعد أن تمكن الإمام الهادي عليه السلام من استعادة صنعاء وذمار ومخاليفهما من يد القرامطة، نَصَبَ أحدُ موالي اليعفريين - ويدعى الحسن بن كبالة- حربًا ضدّ الإمام الهادي ناقضًا الاتفاق الذي بذلوه له، فما كان منه عليه السلام إلا أن رجع إلى صعدة، مفضّلًا ترك الأمر على المصادمة العسكرية مع آل يعفر؛ ليظهر جليًا حرصه الشديد على صون الأرواح، وسلامة أحوال الناس، وعدم اكتراثه بالملك والسلطان إن لم يكن في سبيل إعلاء كلمة الله وتشييد شرعه.

• إمام للأمة

كانت تربط الإمام الهادي عليه السلام بمختلف المذاهب الإسلامية علاقةُ ودٍّ واحترام وتقدير قلّ مثيلها، ولقد ملك اليمن وهم مذاهب شتّى، فكان مظلةً للناس جميعًا، وظلًا لأهل اليمن بمختلف فرقهم، فلم يظلم ذميًا، ولا استبدّ بحق إنسان، ولم يُحْكَ أنه قَاتَل أحدًا بسبب ديانته، ولا تعامل مع مسلم على أساس مذهبه، ولم تكن أيٌّ من معاركه على خلفية طائفية قط؛ بل عاش في ظله المسلمون على تنوع مذاهبهم، وأَمِنَ في دولته الذمّيُّون مع اختلاف ديانتهم.

وهذه نقطة مضيئة ينبغي التوقفُ عندها في سيرته، ونموذج راق للملوك والحكام؛ فما تفككت المجتمعات، ولا اشتعلت النزاعات، ولا ضعفت الدول إلا بسبب التفريق والتمييز الطائفي والعنصري والمناطقي من قبل حكامها وساستها.

ولقد أعطى الإمام الهادي هذه المسألة جلّ اهتمامه، وحرص على أن تسود العدالة مختلف فئات المجتمع؛ فكان يولّي في المناطق الشافعية قضاةً من الشافعية، وفي مناطق الأحناف حكّامًا من المذهب الحنفي، فأقرّ قاضيَ صنعاءَ ابنَ الأعجم الحنفي على عَمَلِه حين دخلَها، وولّى لاحقًا القاضي الحنفي أحمد بن يوسف الحذاقي قاضيًا على صنعاء أيضًا؛ وهلمّ جرًا.

• القتال الخيار الأخير

ولأننا في مقام الهادي إلى الحق الذي ما فتئ يحاول في صلاح الأمة وينادي: «لو أمكنني أشتري صلاح هذه الأمة بما أملك لفعلت؛ الله يعلم ما أقول؛ وكيف لي بصلاحها؟!».

وبهذه الروحية الكريمة ظل الإمام الهادي عليه السلام يسعى لإصلاح الأمة، فيبعث في قلوب خصومه - قَبْلَ أنصاره- الموعظةَ والذكرى قبل أن يباشرهم بالقتال، ويجعل الحرب خيارًا أخيرًا واضطراريًا؛ وكان لا يقاتل قومًا إلا بعد دعوتهم، وإقامة الحجة عليهم، وإرسال رسله إليهم بأن يدخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وأن يحقنوا الدماء، ويعلنوا توبتهم، ويرجعوا إلى الحق إذا كانوا من ناقضي العهد، فإن أبوا قاتلهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

• أخلاق الحرب

حين تَقِفُ على تلِّ التاريخ تنظر إلى سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ميدان الجهاد والحرب، ثم تتشوق أن يجري شريط التاريخ أمامك سريعًا إلى القرن الثالث الهجري؛ لتشاهد حفيدَه الإمامَ الهادي عليه السلام، وهو يسير على نفس الطريق، وبذات القسط، دونَ ميل أو انحراف.

ويشهد بذلك رجلٌ من أقصى التاريخ، قد انبهر بتلك السيرة، وأَعْظَمَ ذلك القسط، وهو الدكتور أحمد صبحي أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية، إذ يتحدث عن سيرة الإمام الهادي في ميدان الحرب، فيقول: «ولم يكن في حربه يَتْبَعُ هاربًا ولا يُجْهِزُ على جريح، وإنْ

طَلَبَ المهزومون الأمانَ أمّنَهم وردّ إليهم أَسْلابَهم، وكان يتشدد على عسكره ألا يدخلوا الزرع ولا يَسْتَحِلوا لأنفسهم شيئًا من ثمار المزارعين، وحينما اغتصب بعضُ جنده في (أثافت) شيئًا من الخوخ غَضِبَ وثارَ واحتجب عنهم وَهَمّ بتركهم، وقال: لا يحل لي أن أحارب بمثل هؤلاء، ولا أكون كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره، واللّهِ، ما هي إلا سيرة محمد أو النار، ولم يسكن غضبه حتى أبدوا ندمهم وتوبتهم عما فعلوا.

سُئلت: ألا تعتقدُ في أنّ هناك مُغالاةً من أتباعه في إضفاء هذه الأوصاف عليه؟

فقلت: لو لم يكن ذلك حقًا لما كانت موالاته إلى يومنا هذا، ولافْتَضَح المستور كما تفتضح سير الملوك بعد موتهم مهما خلعوا على أنفسهم أو خَلَعَت بطانتهم عليهم من تمجيد، فشتّان بين الأئمة وبين الملوك، وشتّان بين أتباعٍ يوالون إلى اليوم وبين بطانة تنافق زمن السلطة». [أحمد صبحي: علم الكلام ـ الزيدية ـ ص١١٤]

• العفو والصفح

كان الإمام الهادي عليه السلام كثير العفو والصفح، حتى مع أولئك الذين تكرر نكثهم وغدرهم، ولقد كان في حروبه يحاول أن يفتح منافذ يستطيع أعداؤه الهروب منها، فكان يمنع أصحابَه أن يتبعوا مدبرًا، أو يقْضُوا على جريح، أو يقتلوا وليدًا أو امرأة أو شيخًا لا يطيق القتال، أو أن يقطعوا شجرًا، أو يمثّلوا بآدمي أو بهيمة.

وقد أمكنته الفرصة من كثير من الخصوم لكنّه تركهم وسبيلهم مع توقعه بأنهم سيعودون إلى قتاله، ومع تحذير قادته له من شرّهم، لكنه لا يأبه لذلك كله، وكأنه يَسْتلْهِمُ سيرة جده علي بن أبي طالب عليه السلام حين طلب منه بعضُهم قتلَ ابن ملجم فقال: «كيف أقتل قاتلي»، وقد فعل الإمام الهادي الفعل نفسه مع الحسن بن كبالة أحد قادة اليعفريين؛ فقد حاول هذا الشقي الحسن بن كبالة اغتيال الإمام الهادي لكن الإمام فطِن لما يخطط له، وحين

فشلت خطته ارتعد وأيقن بالقتل، وهو في مجلس الإمام الهادي عليه السلام، وأصحابُه يطالبونه بقتله، ولكن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سدّ أذنيه عنهم، وفتح لابن كبالة كريم عفوه وصفحه، وأذن له بالانصراف؛ وقد عاد هذا الشقي الحسن بن كبالة إلى قيادة تمرُّدٍ على الإمام الهادي عليه السلام بعد أن أعطاه العهود مع اليعفريين وآل طريف وبقية وجاهات اليمن.

ومن دروسِ العفو العظيمة في سيرة الهادي عليه السلام، أنه لمّا كان في شباب دعا بمن كان في سجنه من آل يعفر وآل طريف، فأطلقهم ومنّ عليهم، وكان مما قاله لهم: "وهبتُ لكم نفوسكم، فاتقوا الله في سركم وعلانيتكم".

ومن ذلك ما فعله مع الحارث بن حميد الخيثمي زعيم بني الحارث أحد أبرز المتمردين، وكان في كل تمرد ينفِّذُ ما تمليه عليه الخلافةُ العباسية كما تفيد المصادر التاريخية، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان مرتبطًا باليهود، وأنه كان ينفذ أجندتهم؛ وقد أمكنت الفرصة الإمام الهادي منه مرات ومرات، فيعفو عنه، وقد كان أسيرًا بين يديه، وليس ذلك إلا رغبةً في استصلاحه.

قال في كتاب التاريخ الإسلامي: «وعلم الإمام الهادي بأن آل يعفر جمعوا قواتهم وفرسانهم واحتلوا صنعاء، فتوجه إلى صنعاء ومعه أبو العتاهية وأنصار الإمام، والمهاجرون من الطبريين والمُضَريين، وهَزَمَ الإمام الهادي بني يعفر ودخل صنعاء، وعفا عنهم، وقال لهم في خطبة الجمعة: "أيها الناس ما نقمتم عليّ إلا ما حكى الله في كتابه عن قوم لوط في قولهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل:٥٦] ولكنني أقول لكم كما قال عمي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف :٩٢]».

ثم بقي في صنعاء سنة كاملة يعلمهم ويرشدهم ويدرأ عنهم الأخطار، ثم احتاج جيشه للمال، ولم يجد ما ينفق عليه، فطلب قرضًا من أعيان صنعاء فلم يقرضوه درهمًا واحدًا، فخرج مع أصحابه إلى صعدة، وقال لهم عند خروجه: «والله لتمنونني، وليضربنكم الله بلباس من الجوع، والخوف، ولتباعن نساؤكم بالدينار والدينارين والثلاثة جزاء من الله على فعلكم وصنعكم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء :٢٢٧]» فلم تمضِ إلا فترة حتى دخل عليُّ بن الفضل صنعاء ـ وكان قد اتخذ من مدينة المذيخرة عاصمة لملكه ـ وفعل الأفاعيل في صنعاء، فادعى النبوة، وأحل نكاح البنات والأمهات والأولاد، وارتكب جميع المحرمات، وارتقى جامع صنعاء وخطب فيهم خطبته الشنيعة التي هدم فيها أركان الدين، ولقي أهلُ صنعاء منه الكثير فلم يجدوا إلا الإمام الهادي فاستغاثوا به لجهاد القرامطة.

فضرب أروعَ صور الصفح والتسامح معهم وهبّ لنجدتهم وإنقاذهم، وتوجّه لجهاد القرامطة، وأخرجهم من صنعاء، وكان له معهم أكثر من نيف وسبعين وقعة انتصر فيها عليهم».

جهاد الإمام الهادي للقرامطة

• القرامطة

تُعــدُّ القرامطة من أكثر الجماعات المنتســبة إلى الإســلام تطرفًا وانتهاكًا للحرمات، بما حوى فكرها من انحرافات شديدة، واعتقادات باطلة، لا تقبلها الفطرة السليمة، وتجاوزات منكرة شكلت خطرًا حقيقيًا على اليمن خصوصًا والأمة الإسلامية عمومًــا؛ وقــد أجمعت الفــرق الإســلامية وعلماءُ المسلمين على كفرها وضلال أفكارها؛ ومن أبرز ما عُرِفَ عنها وحشــيتُها المفرطة، وإســرافها في القتل والتعذيب والفتك بالمسلمين؛ وقد عدّدَ الإمام الناصر أحمد بن الهادي عليه السلام في رسالته لأهل طبرستان ص٥١ بعض أفكارها ومعتقداتها في ثنايا حديثه عن رئيس القرامطة في اليمن علي بن الفضل: «فأحلّ بعتُوّه وجرأته على اللّه وظلمه الأمهات والبنات والعمات والخالات، وانتهك الحرمات وأحل المحارم

المعضلات، وحرّم الحلال وعاند الحق والبينات، فسبى هو وأصحابه بفسقهم المؤمنات وفضحوا المسلمات؛ فبيعت النسوان بالدراهم وارتُكِبْنَ بالعظائم واستُخْدِمْنَ استخدامَ البهائم... الخ».

وقال نشوان الحميري في كتابه الحور العين ص٥٩ وهو يتحدث عن علي بن الفضل: «وأعلن بالكفر، وأحلّ جميع المحرمات، وخرّب المساجد، وكان يدّعِي أنه نبي».

وبهذا الفكر مارس القرامطة في الأمة الإسلامية أفحشَ المنكرات وارتكبوا أفدحَ العظائم، حتى قال ابنُ الأثير كما روي عنه في مآثر الأبرار: «وعلى الجملة فالذي فعلوه في الإسلام لم يفعله أحدٌ قبلهم ولا بعدهم من المسلمين، وملكوا كثيرًا من العراق والحجاز، وبلاد الشرق والشام إلى باب مصر».

وقد ذكر المؤرخون عددًا من جرائمهم، ومن أبشعها وأكثرها إجراماً قتلهم الحجيج في مكة المكرمة وسبيهم النساء؛ قال صاحب كتاب الفَرْق بين الفِرَق ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ وهو يتحدث عن فتنة سليمان بن الحسين القرمطي: «وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل مكة وقتل من وجده في الطواف وقيل إنه قتل بها ثلاثة آلاف وأخرج منها سبعمائة بِكْر واقتلع الحجر الأسود وحمله الى البحرين ...الخ ما ذكر».

أما عن جرائمهم في اليمن فحدِّث ولا حرج، فقد عاثوا فيها فسادًا، فخرّبوا المدن والحصون الأثرية، وكانوا يقتلون من فيها من الرجال، ويذبحون الأطفال، ويسبون النساء بلا رحمة ولا هوادة، فاستباحوا مدينة «ثات» أثناء دخولهم ذمار، ولمّا لجأ أهلُها إلى المسجد أحرقوه بمن فيه من الرجال والنساء والأطفال، كما استباحوا مدينة صنعاء عدة مرات وقتلوا جميع من وجدوه فيها، وبنفس ذلك الإجرام استباحوا مدينة زبيد وعدداً من المدن اليمنية الأخرى.

• جهاد الإمام الهادي للقرامطة

نعود بكم إلى الوراء قليلًا، ونذكركم بقصة الإمام الهادي عليه السلام حين طلب من أهل صنعاء أن يعينوه بقرض يغطي به نفقة العسكر، فامتنعوا من ذلك، فلم يجبرهم عليه السلام، وإنما خاطبهم بقوله: «والله لتمنوني فَوَاق ناقة، ولتباعنّ نساؤكم بالدينار والدينارين والثلاثة، وليضربنكم الله بلباس الجوع والخوف»، ثم يقول لهم: «ليس ما ذكرت لكم من بيع الحرم منا ولا من بني طريف ولا من بني يُعْفِر، ولتعرفنّ صدقَ قولي قريباً جزاءً من الله على فعلكم وخذلاناً منه على صنيعكم».

وهنا الإمام الهادي يدق عليهم ناقوس الخطر؛ لكنهم بغفلتهم وخذلانهم أعرضوا عن قوله، فترك الإمام الهادي صنعاء متوجهًا إلى صعدة، ولكنه لم يَغِبْ عنها طويلًا؛ فقد دارت الأيام سريعًا، وصدق ما حذرهم منه؛ فقد أقبل علي بن الفضل يطوي الخطى إلى صنعاء؛ ليدخلها في ١٠ محرم ٢٩٣هـ، فلا يرى منه أهل صنعاء إلا سوء العذاب والنكال، بعد أن فرّ حكامها اليعفريون.

حينها تداعى معظم زعامات أهل صنعاء، وأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا وفدًا من كبرائهم ومشائخهم إلى الإمام الهادي عليه السلام، طالبين منه التقدم والمصيرَ إليهم، على أن يولّوه عليهم، ويطيعوه رغبةً في تخليصهم من خطر القرامطة، فأخبرهم بما يعانيه من قلة ذات اليد، وأنه لا يطيق الإنفاق على العساكر، فالتزموا بإعانته، فتقدّم إلى صنعاء وقاد الجهاد ضدّ جيوش علي بن الفضل، وحقق عليهم انتصارات ساحقة، وتمكن من طردهم من صنعاء، ثم أرسل جيشًا بقيادة ولده محمد لملاحقتهم إلى ذمار.

وقد رُوِي عن أبي عبدالله اليمني أحد فرسان الإمام الهادي أنّ مجموع الوقعات التي خاضها الإمام الهادي ضدّ القرامطة بلغت ثلاثًا وسبعين وقعة، وأنّه كان يحارب فيها بنفسه، ومن أشهر تلك الوقائع: وقعة وادي المغمة؛ الوادي الذي يقع بين آنس وذمار.

• الهادي مدافعًا عن مكة

في تجاوز صارخ للخلق والدين، وانتهاك لا محدود للحرمات، واستهانة بالمقدسات الإسلامية توجّه علي بن الفضل القرمطي بجيشٍ جرارٍ كامل العدة والعتاد قاصدًا غزو مكة، عازمًا على خرابها؛ ولكن أنّى له ذلك؟! فما إن علم الإمام الهادي عليه السلام بخبر علي بن الفضل حتى جمع أصحابه، وقال لهم: «قد لزمنا الفرض في قتال هذا الرجل»، فَجَبُن أصحابه عن قتالهم واعتذروا بقلة عددهم وكثرة عدد أولئك، وكان أصحابه المقاتلة منهم في ذلك الوقت ألف رجل؛ فقال لهم الهادي إلى الحق عليه السلام: «تفزعون وأنتم ألفا رجل»، فقالوا: إنما نحن ألف، فقال: «أنتم ألف، وأنا أقوم مقام ألف، وأكفي كفايتهم».

فقال له أبو العشائر ـ أحد شجعان أصحابه ـ: ما في الرجالة أشجع مني، ولا في الفرسان أشجع منك؛ فانْتَخِب من الجميع ثلاثمائة رجل وسلِّحهم بأسلحة الباقين حتى نبيتهم، فإنا لا نفي بهم إلا هكذا؛ فاستصوب الإمام عليه السلام رأيه؛ فأوقعوا بهم ليلًا، وهم ينادون بشعاره عليه السلام {وَلَيَنْصُرَنَّ اللّه مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّه لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ} [الحج: ٤٠]، فمنحوه أكتافهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغنم منهم شيئًا كثيرًا.

وهكذا كان للإمام الهادي عليه السلام الفضل العظيم في مواجهة أشدّ الأخطار على يمن الإيمان بمحاربة القرامطة، والتنكيل بهم، حتى قيل: إن لليمن نعمتين؛ نعمة الإمام الهادي ونعمة القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام البهلولي، فلولا الهادي لكانت اليمن قرامطة، ولولا جعفر بن عبدالسلام لكانت مطرفية.

وإن كان الإمام الهادي خط الدفاع الأول عن اليمن من فتنة القرامطة، فقد واصل ولده المرتضى وبعده أخوه الناصر عليهما السلام ذلك النهج حتى طهّرَ الله اليمن من القرامطة، وأزال خطرهم عن اليمن إلى الأبد.

فلْيَعْلَم كُلّ عالمٍ أو جاهل، أو من دعي إلى الحق والجهاد فتواني، وتشاغل، وكَرِهَ السيفَ والتعب، وتأوّلَ على الله التأويلات، وبسط لنفسه الأمل، وكَرِهَ السيف والقتال، والملاقاةَ للحُتُوف والرجال، وآثر هواه على طاعة مولاه، فهو عند اللطيف الخبير، العالم بسرائر الضمير؛ من أشر الأشرار، وأخسر الخاسرين

الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام

الإمام

الهادي

إلى الحق

منارات

منارات

• الحافظ الكوفي محمد بن سليمان الكوفي

سيرة تتضوع منها أصقاع الأرض، ومسيرةٌ تمضي تحتَ راية العلم والجهاد، ونَفْسٌ تطوي المسافات، وتجتاز الصعوبات؛ لتصل إلى معالي الفضيلة ومواطن المجد.

إنها سيرة العلامة المجاهد والقاضي العادل محمد بن سليمان الكوفي رضوان اللّه عليه؛ والذي ينتهي نسبه إلى أسد بن خزيمة.

وُلِدَ رضوان اللّه عليه بأرضِ العراق، وأَخَذَ العلم، وطلب الحديث عند كبار علمائها، وكان من أبرز مشائخه في الكوفة: شيخُ الإسلام وحافظُ السنة الشريفة الإمامُ محمد بن منصور المرادي.

كان للعلامة محمد بن سليمان الكوفي - منذُ صباه- شَغَفٌ كبيرٌ بالعلم وطلب الفقه والأخذ عن العلماء، ولتحقيق هذه الغاية السامية تنقل ورحل إلى مختلف البلدان الإسلامية لطلب العلم، فدخل مصر والشام والحجاز وغيرها، حتى صار واحدًا من أبرز أعلام الإسلام، وحافظًا متمكنًا من طرق الرواية والدراية، ومناظرًا لا يُبارى في مسائل الدين، وموسوعة علمية في شتّى الفنون.

كان الحافظ العالم محمد بن سليمان واسطة مهمة في سلسلة الموروث العلمي لهذه الأمة، فقد نَقَلَ أهمّ كتب التاريخ وأخبار الإسلام، كأخبار صفين، وأخبار النهروان، ومقتل الحسين، وغيرها.

قال عنه الإمام مجد الدين المؤيدي: «إمام الشيعة على الإطلاق، المهاجر إلى إمام اليمن من العراق، العالم الولي، محمد بن سليمان الكوفي».

وقال ابن أبي الرجال في ترجمته: «علامة العلماء وسيدهم، الفاضل المحدِّث الجامع للكمالات الربانية».

ولقد علا شرفُه في العلم والفقه والرواية بانتقاله أخيرًا إلى اليمن بعد قيام دولة الإمام الهادي عليه السلام، وملازمته له، وأخذه للعلم عنه؛ كما أخذ العلم في اليمن عن مشائخ آخرين غير الإمام الهادي منهم محمد بن زكريا العلائي.

وإن يكنْ قد غُمِطَ جانبُ هذا العالم الرباني، وأُهمِل الحديثُ عن جوانبَ كثيرةٍ من حياته إلا أن المؤرخين لم يستطيعوا تجاوزه، وسجّلوا إقرارَهم بعظمته علمًا وتأليفًا وقضاء وولاء لأهل البيت عليهم السلام؛ وكتابُه في مناقبِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أعظم شاهدٍ على أنه من العلماءِ القلائل الذين نالوا نواصي الرواية، وحازوا أسباب الدراية بتمكن منقطع النظير، وقد قال المحقق محمد باقر المحمودي في سياق حديثه عن كتاب فضائل أمير المؤمنين، بعد تحسُّرٍ على تأخر إخراج هذا الكتاب: «ثم إن كتاب المناقب هذا من أفخم ما صنف في إثبات معالي الصادقين، وإيراد مزايا الصديقين، وهو مع نقصه في مواضع منه - كما نشير إليه في مظانها - هو الغالي الذي ما وجدنا مثله، ولا يسع لمُثمّن أن يثمّنه؛ ومن خواص هذا الكتاب أن أكثر مواضيعه مما اشترك في روايته الشيعة والسنة، وكثير من مواضيعه؛ إما متواتر عند المسلمين، أو رووه بنحو الاستفاضة، وأكثر رواة مواضيعه من رواة صحاح أهل السنة كما نبهنا على ذلك في كثير من تعليقاتنا عليه، وفي كثير من المواضيع علقنا عليه وذكرنا حرفيًا ما رواه أهل السنة في صحاحهم وكتبهم الموثوقة». ثم قال عنه: «أنه تفرد بمزايا لا توجد في غيره».

ولمحمد بن سليمان الكوفي كتاب البراهين في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو لم يطبع بعد.

وإن كان كتاب المناقب قد كشف عن تمكن الكوفي في علم الرواية وسعة روايته، فقد دلّ كتابا المنتخب والفنون - الذَين هما أجوبة لمسائل سأل عنها الإمامَ الهادي عليه السلام- أنه كان من سلاطين الفقه وأئمته.

ويكفي شاهدًا على فضله وعلمه رضوان الله عليه أنه لما قدم إلى اليمن ولاه الإمام الهادي عليه السلام على منصب القضاء مع وجود الكثير من كبار العلماء بين يدي الهادي، كمحمد بن عبيد الله العلوي، وأحمد بن موسى الطبري، وهذا دليل جلي على مكانته السامية ومرتبته العالية في العلم والفقه والورع؛ وما ظنكم بمن ارتضاه الإمام الهادي قاضيًا.

ولم يكن الحافظ محمد بن سليمان الكوفي مبرزًا في ميادين العلوم والقضاء فقط، بل كان له حضوره أيضًا في ميادين الجهاد، فشارك قبل مجيئه إلى اليمن في ثورة الإمام علي بن زيد بن الحسين بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

عَلَيْهم السّلام في الكوفة، وقد أبلى بلاءً حسنًا، وجاهد جهاد الأبطال مع مائتين من المجاهدين إلى جنب الإمام، فأشعلوا ثورة أقضت مضاجع الظالمين والمتجبرين؛ وقد تحدّث محمد بن سليمان عن هذه الثورة، وحكى أنهم لقنوا الجنود الظالمة هزيمة موجعة في الكوفة، بإيمانهم ووعيهم وثباتهم، وكان قد جعلهم الإمام في حِلٍّ منه، وأمرهم بالانصراف عنه والذهابِ إلى منازلهم، إلا أنهم أبوا إلا الثبات معه والاستبسال بين يديه؛ ليعيدوا مشهد أنصار الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف.

لم يُكتب لتلك الثورة النجاح؛ فتخاذل الناس، واستبسال الكثيرين في نصرة الظالمين، وَأَد تلك الثورة مبكرًا؛ ولكن العلامة الكوفيّ لم يتوقف عند ذلك، فظلّ يرقب الأرجاء، وينتظر وهجَ حركة ثورية جديدة، وما إن وصل إلى سمعه خبرُ خروج الإمام الهادي عليه السلام إلى اليمن، حتى خرج إليها، يَشْدو به حبُّ العدل والحق، ويحدو به حادي العلم والهدى، وفي صعدة استقر به النوى وحطّ عصا الترحال في رحاب إمامه الهادي عليه السلام.

وبعد أن توفي الإمام الهادي عليه السلام تولّى محمد بن سليمان القضاءَ لولده الإمام الناصر، وكان أحد خواصه الذين يثق بهم ويطلب مشورتهم.

وهكذا ظل الحافظ محمد بن سليمان الكوفي رضي الله عنه في رحاب أهل البيت عليهم السلام، يناضل معهم، ويذود عنهم بعلمه وسيفه، حتى توفاه الله سعيدًا كريمًا، بعد أن ترك لنا الأثر البالغ علمًا وعملًا، وأضاف إلى المكتبة الإسلامية كتبه القيمة؛ فسلام الله عليه ما لمع نور العلم وما قام علم الجهاد، وعلى أهل الولاء والولاية ومن سماهم الله خير البرية من الشيعة الكرام من يومنا هذا إلى يوم الدين.

• عميد الأوابين

إن التوبة إلى الله والإنابة إليه لهي من أعظم المكاسب الدنيوية، وأدلّها على صفاء السريرة، وهي بابٌ جعله الله مشرعًا لكل من زلّتْ به القدم، وجرّته النفس إلى الخطأ، وفي التوبة تجسّدت رحمة الله التي يلجأ إليها المذنبون، بل إنّه سبحانه وتعالى رغّب فيها وحثّ عليها، فما أقبل مذنبٌ إلى الله ذراعًا إلا أقبل العفوُ الرحيم إليه باعًا؛ وفي هذا السياق نجد أن التاريخ الإسلامي قد قدّم لنا عبر العصور نماذجَ مشرقة من سير الأوابين خليقةً بأن نتوقف عندها، ونأخذ منها العظةَ والقدوةَ في مسيرة الحياة؛ لقد نطقت تلك النماذج أن القلب السليم حتى وإن تلبس بالمعاصي أو أخطأ الوجهة أو تعثر لِلَحْظة، تَنْفَعُه الذكرى وتَزْجِرُه المواقف، وأنه متى سمع نداء الله أناب وتاب، وصحح الاتجاه، وأخلص العمل لمولاه؛ لتحلّ عليه أسباب الهداية، وتغمره سحب الرعاية الإلهية.

وهنا لن نذهب بعيدًا نحو شرق الأرض أو غربها، بل سنتحدث عن الملك اليمني أبي العتاهية عبدالله بن بشر رضوان الله عليه، الذي كانت قصته تجسيدًا حقيقيًا للتوبة الصادقة في أسمى نماذجها؛ فمن هو أبو العتاهية؟ وأين عاش؟ وكيف ختم حياته؟!

هو أبو العتاهية عبدالله بن بشـــر، أحد ملوك اليمن ووجاهاتها، عاش فـــي أواخر القرن الثالث الهجري، وكان من أســـرة ذات سيادة وسلطان، وقد حكم أجزاء من اليمن منها صنعاء، وإن كان ذلك الحكم تحت مسمّى الدولة العباسية التي لم يكن للعباسيين فيها إلا الذكر في الخطبة.

وقد حدث مع أبـــي العتاهية موقفٌ غيّر مجرى حياته وحياة اليمنيين، ففي ذات مساء وبينما كان أبـــو العتاهية ينادم أحد وزرائـــه، إذ عطش فطلب الماء، فأتاه الوزير بالماء، وكان حكيمًا وصاحب فطنة، وقال له: لو مُنِعتَ هذه الشربةَ بكم كنتَ تشتريها؟ فقال: بنصف مملكتي؛ فشربها..

ثـــم قال لـــه: لو لم تخرج من جســـدك، بكم كنت تشـــتري خروجها؟ قـــال: بالنصف الآخر، فقال الوزير: مَا مَلكْتَ لا يساوي شربة.

حرّكـــتْ كلماتُ الوزير جـــرسَ إنذار بداخل أبـــي العتاهية، فقال لوزيـــره: فما نصنع؟، فقال: نبعث إلى شـــريف ينزل بالـــرس، يقال له: يحيى؛ فلعل الله ينجيك به؛ فراسله.

ولا شـــك أنه لم يكـــن ذلك التأثيـــر ليقع في نفـــس صاحب النفوذ والســـلطان لو لـــم تكن نبتة الخير مغروســـةً فـــي داخله، «ولو علـــم الله فيهم خيرًا لأسمعهم» فســـلامة القلب ونقاء الطوية هي من حرّكَتْ فكرةَ التصحيح والإنابة، وأثارت روح التوبة والعودة، فتحوّل المُلْكُ في نظره إلى ذنبٍ يجب التخلصُ منه، وعبءٍ من الضروري طرحه، ولكن بالوســـيلة التي تكـــون فيها النجـــاة، ويحصل بها التغيير؛ ذلك التوجه ظلّ يردده على جلسائه كثيرًا، فقد روى مؤلف ســـيرة الإمام الهادي أنّ أبا العتاهية كان يقـــول: «والله لو خرجتُ من هذا الأمر الذي كنتُ فيه بمِسْحٍ ألبَسُهُ لرأيتُ أنه أصلح لي».

وفعلًا أرســـلَ أبو العتاهية إلى الإمام الهادي عليه السلام رُسُـــلَه، يَطْلُب منه الوصولَ إلى اليمن، وبذل له مملكته وأمواله وســـلطانه، وما إن وصل الإمام الى صعـــدة حتى صدقـــت نيّةُ الملـــك اليماني أبي العتاهيـــة، فكان يَمِدُّ الإمامَ الهادي بالمال والرجال معينًا له في تثبت مداميك العدالة في شـــمال اليمن صعدة ونجران، ويترقب طالع الإمام ليشرق من سماء صنعاء، وما إن اســـتتب الأمـــر بصعدة ونجران حتى استجاب الإمام لدعوة أبي العتاهية ومراسلاته؛ فتوجه إلى صنعاء، وفي منطقـــة حدقان كان أبو العتاهية فـــي الانتظار، وما إن أطلّ الإمـــام الهادي حتى رمى أبو العتاهية برمحه وكشف رأسه، ونزل عن فرسه، فلمّـــا نظر إليه الهـــادي نزل عن فرســـه، وأقبل أبو العتاهية يحتضنه ويقبل رأسه ويديه، وجثا بين يديه، ثم جلســـا معًا، فقال له أبو العتاهية: اســـتحلفني يا أمير المؤمنين؛ فاستحلفه الإمام الهادي، وأخذ بيعته على القيام معه بالحق وعلى الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثُمّ مضى معه إلى صنعاء.

صدقت توبة أبي العتاهية، وأخلص في إنابته، وأعطى الإمـــامَ الهادي كلّ ما يملك، وتنازل عن مملكته، ودعـــا وزراءه وقادته إلى مبايعة الهادي والتسليم له.

فـــي ليلة وضحاها خرج الإنســـانُ من ملكه، وتنازل عن السلطان الذي هو أعظم رغبة إنسانية تمتلك المرء وتسيطر عليه.

فإن زهدت في شهوة المال أنفسٌ
لما زهدت عن شهوة النهي والأمر

وفي سبيل هذه الرغبة تقوم الحروب، وتُشَنُّ المعارك، وقد قيل إن الملك عقيم، فمن أجله يقتل المرء أباه وأخاه، ويكفر باللّه، ويسفك الدماء، وينتهك الحرمات.

ولكن أبا العتاهية كان على خلاف ذلك، فقد تنازل عن كل مغانم الدنيا، وبذلها في سبيل اللّه برغبة من نفسه، فكان بحق قدوة للتائبين والمنيبين.

لقد تحول أبو العتاهية من ملك يأمر وينهى إلى جنديّ في جيش الإمام الهادي، وقد أعطى كُلّ ممتلكاته من مال وخيل وسلاح، بل إن الإمام الهادي عرض عليه أن يوليه في بعض المناصب السيادية أو يعطيه ولاية بعض المناطق والمخاليف اليمنية، ولكنه رفض ذلك، وآثر أن يكون جنديًا مطيعًا ومقاتلًا مخلصًا في جيش الإمام، قائلًا له: «لا أريد يا أمير المؤمنين ذلك، ولكن أكون خادمًا بين يديك».

ولأن أبا العتاهية كان حالةً فريدةً سجلها التاريخ في التنازل عن الملك والتخلي عن السلطان، فقد كانت توبته تمثل أرقى ما تكون عليه التوبة، وأصدق ما يمكن أن توجد عليه؛ وقد رأى أن النفس بحاجة إلى ترويض حتى يذهب عنها ما خلّفته سنوات السلطان وما علاها من درن الأوزار، فذهب إلى ضيعة كان قد بناها، وجعل له فيها منزلًا، فاعتزل فيها يحاول أن يبني نفسه ويهذبها من جديد حتى تعود صافية نقية خالية من الذنوب.

وقد نزع عن نفسه كل مظاهر بذخ الملوك من ثياب وحشم، واستعاض عنها بلباس الفقراء والزهاد، وتقشف في مأكله وملبسه وحياته، ورأى أن ذلك اللحم الذي نبت من حرام لا بُدّ أن يذهبه وينمو بدلًا عنه لحمٌ حلال طيب؛ قال الإمام المرتضى محمد بن يحيى عليه السلام: «دخل إلينا أبو العتاهية في بعض الأيام، فنظرت إلى وجهه متغيرًا فقلت له: لِمَ تعملُ بنفسك هذا وأنت تحتاج إلى نفسك؟ كُلْ من الطعام، فقال لي: لا واللّه يا بن رسول اللّه حتى يذهب هذا اللحم الذي قد حملته من الحرام ثم آكل».

لقد تمثل أبو العتاهية الدين واقعًا، وعاشه في كل تفاصيل حياته، لا يبتغي غير موافقة مراد اللّه والتزام طاعته، وقد رسم مساره الجديد بعناية فائقة وحسن اختيار، فكان أهمّ الأمور عنده تقديسُ الشرع والتنازل عن كل شيء في مقابل تطبيق أوامر اللّه؛ إنها طاعة لا تقبل التجزئة، وإنابة لا تدخلها التبريرات، وتسليم للّه في كل شيء.

ومن أعظم الشواهد على ذلك؛ موقفُه الذي سطره التاريخ من المرأة التي ادّعت عليه في حضرة الهادي، قال في السيرة: «فلمّا كان في بعض الأيام إذا بمرأة تصيح على باب الهادي، فأمر بإدخالها إليه، فلما دخلت قالت: أنصفني من أبي العتاهية، فأرسل الهادي إلى أبي العتاهية فأحضره، وقال له: أنصف هذه المرأة، ثم قال الهادي للمرأة: ما تدّعين عليه؟ قالت: لي في يده ضيعة غصبها أبوه، فقال أبو العتاهية للهادي: أوجب عليّ وعليها ما يجب يا أمير المؤمنين، فقال الهادي للمرأة: هل لك شهود؟ قالت: نعم، فمضت فأحضرت شهودًا، فشهدوا عند الهادي لها بالضيعة، فحكم الهادي للمرأة بالضيعة، وأمرها بقبضها فقبضتها».

عاش أبو العتاهية عبداللّه بن بشر بقية عمره لا يرغب في شيء، ولا يتطلع لأمنية، ولا يطلب أمرًا سوى الشهادة في سبيل اللّه، وهو ما عبّر عنه في مراسيم تشييع أحد أصدقائه الشهداء، وهو محمد

ابن أبي عباد، حين وقف على قبره وخاطبه: «وددتُ أني كنت معك فأستشهد، رزقني الله ما رزقك».

وبالفعل فقد واصل أبو العتاهية مسيرته في طريق الحق حتى نال ما تمنى، وارتقى شهيدًا وهو يقاتل مع الإمام الهادي عليه السلام، في ٦ شوال سنة ٢٨٨هـ في منطقة حدين بصنعاء؛ ليَبْلُغَ أعلا الرتب، ويبقى التاريخ يحكي عنه أروع المواقف، فرضوان الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيا.

• العلوي وكربلاء أخرى

هو الشريف الفاضل أبو جعفر محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

سكن المدينة المنورة فلمّا علم بعزم الإمام الهادي على الخروج إلى اليمن توجه إلى الرس ورافق الإمام إلى اليمن، وقد ابتلاه الإمام في المهمات الصعبة والمواقف الحرجة فكان من ثقات الإمام وجنده الثابتين ورجاله المخلصين، وأحد أبرز أركان الجهاد بين يدي الإمام.

ولاه الإمام الهادي ولاية نجران، فقُتِلَ رحمه الله شهيدًا خلال ذلك؛ ولاستشهاده قصة تشبه إلى حدٍّ كبير قصةَ الإمام الحسين في كربلاء؛ وكان من قصته أن بني الحارث حاصروه في نجران، وتخاذل عنه أكثر أصحابه من بني عبد المدان وغيرهم، فلمّا تبين له ذلك قال شعرًا:

غدرتم يا بني عبد المدانِ
وكان الغدرُ من شيمِ الجبانِ
حلفتم لي بأيمانٍ غلاظٍ
تخرُّ لها الصخورُ من القنانِ
بأنكمُ على نصري حراصٌ
غداةَ الروع في وهجِ الطِّعانِ
فلم توفوا بعهدكمُ وكنتم
شرارًا يا بني عبد المدانِ

ثم التفتَ إلى أصحابه فقال: لا تهنوا يا أحبائي، ولا تجزعوا لقلتكم وكثرة عدوكم، وموتوا كرامًا على دينكم، فقد حَمَدَ اللّه القليلَ، وذمّ الكثير في كتابه، فقالوا له: واللّه يا سيدنا إنا لنعلم أننا على الحق وهم على الباطل، وما يغمنا إلا أن يستمكنوا منك، ولوددنا أن اللّه يُسلمك بذهابنا جميعًا، فاقصد ما أحببت، واعمل ما شئت، فأنفسنا دون نفسك، ودماؤنا دون دمك، ولتجدنا صابرين في جميع حالاتنا موفين للّه تعالى ولك بعهدنا، فقال لهم: أوفى اللّه أمانتكم وأحسن جزاكم، فأنتم على أفضل مما ذكرتم.

ثم أقبلت بنو الحارث قاصدين إلى داره، وأقبل رجلٌ يدعى ابن حميد بمن كان معه، فأحاطوا بالقرية، فلما رأى ذلك محمد بن عبيد اللّه قام من مجلسه، وأخذ سيفه ودرقته وشدّ عليه جوشنه، وصاح بأصحابه: الجلاد يا أحبائي دون أنفسكم..

وكان صابرًا شديد البأس يحفّز أصحابه، حتى قال عنه بعض من كان معه: ولقد رأينا به سرورًا بيّنًا وابتهاجًا واضحًا عندما نزل، وإنه ليضحك إلينا، ويطيّب نفوسنَا، كأنا نحن الظافرون بعدوّنا، وكانت أنفسنا لا تطاوعنا إلى ما طاوعته إليه نفسه، وكرهنا نحن النزول عن دوابنا، ورغبنا بالقتال عليها.

ثم إن بني الحارث تمكنوا من دخول الدار، وقد تحصن أبو جعفر وأصحابه في علو الدار، وطلعت بنو الحارث من جوانب الدار كلها، وأتوا السلاليم فطلعوا عليها فوق السطوح، وهدموا جوانب الحجرات، حتى صار أبو جعفر وأصحابه إلى رواقٍ قدام البيت الذي كان قد آوت إليه حُرَمهم، فجعلت بنو الحارث ترميهم بالنبل والحجارة، ودار بينهم قتال شديد أشد ما يكون، حتى كثرت فيهم الجراحات، ولم يسترهم من النبل جدار، فدخلوا البيت خوفًا أن يدخلها أولئك من خلفها وهم لا يعلمون، فلما نظروا إلى حرم آل رسول الله وما قد نزل بهم من عدوهم، قال لهم أبو جعفر: موتوا قبل أن يوصل إلى واحدة منهن يكن لكم فخر الدنيا وثواب الآخرة فأجمعوا على ذلك.

وبقي محمد بن عبيد الله وأصحابه يستبسلون في القتال حتى استشهد الكثير منهم، ولما اشتد البلاء بمن بقي منهم، وكثر بهم الأعداء، نظر بعضهم إلى بعض وتذامروا، وقالوا: لا حياة لنا بعد أصحابنا، وإنما كانت هجرتنا من بلداننا وتركنا أموالنا وأوطاننا طلبًا لمثل هذا اليوم، فقد أدركنا أمنيتنا إذ صارت دماؤنا تسفك دون آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التفتوا بأجمعهم إلى محمد بن عبيد الله فقالوا له: يا سيدنا هل أدّينا ما يجب لله ولك علينا؟ فقال: نعم جزاكم الله من أصحابٍ خيرًا، فلم أرَ أوفى منكم عهدًا، ولا حرمة وودًا، فقالوا له: نحن نقيك بأنفسنا، ونستودعك الله، وهو خليفتنا عليك، ثم خرجوا خرجة رجل واحد، فتقنعوا دروقهم، فلم يزالوا يقاتلون حتى قُتِلوا جميعًا رحمهم الله تعالى، وبقي محمد بن عبيد الله وحيدًا، يقاتل حتى أصابوه بنبل كثيرة في وجهه، وضُرِب بالسيوف حتى تقطعت درقته، ثم رجع إلى الحُرَم فطلب منهم الماء، فقامت إليه جارية له بقدح فيه ماء فهوى به إلى فمه، فقطر فيه الدم من وجهه، فرده ولم يشرب منه شيئًا.

وأقبلت بنو الحارث حتى وقفت على باب البيت، فبرز إليهم، ثم حَمَل عليهم، وظلّ يحول بينهم وبين دخول البيت، فما كان منهم إلا أن نادوه بالأمان أملًا في أن يستسلم، ولكنه رفض أمانهم وقال لهم: لا والله لا كان ذلك أبدًا، ولا مضيتُ إلا على ما مضت عليه آبائي الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين.

وخرج عليهم، فتغاور عليه القوم وتحاوشوه من كل جانب، فظل يقاتلهم ثم رجع إلى البيت، فاختبأ له رجل منهم من خلف الباب من خارج، يقال له جبر بن جابر المحجلي، فلما خرج محمد بن عبيد الله ضربه الرجلُ ضربةً على عضده أوهن منها يده اليمنى، فرجع رضوان الله عليه إلى موضعه.

فصاحت بنو الحارث بمن كان على السطح أن يهدموه عليه وعلى من فيه من حرمه وصبيانه، ثم دعا إليه حرمه وصبيانه، فأوصاهم وسلّم عليه وودّعهم، وقال: الله خليفتي عليكم، ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني قد وفيتُ لك بيعتي، وليحيى بن الحسين بما بايعته عليه، فأسألك أن تعرفني ذلك في المقام المحمود الذي وعدتَ به أولياءك الصالحين.

ثم أقبلت بنو الحارث من ورائه من خلف الباب، فلما خرج عليهم تبعه الحارث بن الحارث من ورائه،

فضربه في قفاه، فخرّ محمد بن عبيد الله بينهم، ووضعوا فيه سيوفهم، فقطّعوه، ونزعوا سلبه، وتسابقوا على اغتنام ما عليه، ووضعوا فيه أسيافهم، حتى لم يبقَ أحد ممن دخل البيت إلا ضربه بسيفه.

ولقد بلغ الحقد والانتقام والجراءة من قاتليه الغاية، ويكفي في ذلك قول أبي العوارم بن موسى القنطي؛ حيث ارتجز وهو يحز رأس أبي جعفر محمد بن عبيد الله العلوي:

ولا أبالي بعد ذا ما حلّ بي
شفيتُ نفسي وبلغتُ مأربي
من سخط الله ومن لعن النبي

وممـا يظهر بشاعة إجرامهم، وتوغلهم في سفك الدماء، أنه لمّا وضعوا سيوفهم بمحمد بن عبيد الله بعد موته، تعلّق به وطرح نفسه عليه ابنٌ لابنه عليّ يقال له الحسن، ابنُ ست سنين، قال لهم: ويلكم لا تمثّلوا بجَدّي، أمَا قد كفاكم أن قتلتموه وأصحابه، فرماه رجلٌ منهم بسهم في بطنه، فسقط الصبي مغشيًا عليه، ثم وضعوا سيوفهم بالنساء والصبيان والأطفال، فجرحوهن وسلبوهن، وأخذوا ما عليهن حتى تركوهن عراة لا يتوارين بقليل ولا كثير، وما منهن امرأة إلا وقد نالها ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وأخذوا صبيًا له ابنُ ستة أشهر؛ ليضربوا به الجدار، فلحقته أمُّه فأخذته منهم بعد ما جرُّوه على الأرض، وشجُّوه وأراقوا دمه، وأخذوا ابنةً له صغيرة بنت أربع سنين فضربوها بالسيف ضربتين جافيتين.

وفي هذه الحادثة الكربلائية الكثير من التفاصيل المؤلمة، وقد ذكرها صاحبُ سيرة الإمام الهادي، وهو علي بن محمد بن عبيد الله المذكور.

وقد كتب ولد محمد بن عبيد الله إلى الهادي عليه السلام قصيدة طويلة، يقول فيها:

ابن الحسين تحالفت حارٌ على
أن يقتلونا يا بني العباسِ
يا ابنَ الحسينِ تقاسموا أموالَنا
وخيولَنا فافرج بصولةِ قاسي
عجلْ بنصرك يا بنَ أكرم هاشم
وافكك عشيرَك من يدِ الخناسِ
فيها الأراقمُ والأفاعي كلُّها
يسقيننا سمّ الحتوف بكاسِ
لا خيرَ في حارٍ ولا أحلافِها
(يام) فإنهم من النسناسِ
لا يشكرون صنائعًا أوليتهم
بل يكفرون وكلهم متناسي

وقال في ترثية والده:

منع الحزن مقلتي أن تناما
وذرى الدمع من جفوني سجاما
يوم ناديت حي الأحلاف للنـ
ـصر على (مذحج) وناديت (ياما)
ودعونا لنصرنا (الوادعيـ
ـين) فلم ينصروا الأمين الهماما
لا يجيبون صارخًا قام يد
عو يا لهمدان نصروا الإسلاما
فدعونا (ثقيف) كي ينصرونا
فأجابوا، ولم يكونوا لئاما

نصرونا على العدوِّ وقاموا
دوننا يدفعون عنا الطغاما
فخرجنا بهم إلى (حار كعـ
ـب) بخيول إلى العدو ترامى
فأتانا الخبير يخبر أن قد
قتل (الهاشمي) وذاق الحماما
قتلت حارث بن كعب شريفًا
خير من وحد الإله وصاما
قتلوه، فأفحشوا القتل فيه
حين أضحى لديهمُ مستضاما
لهف نفسي عليه ما حنّت النيـ
ـب وما داعت الحمام الحماما
لهف نفسي عليه لهف لهيف
لهف حيران لا يلذ مناما
لهف نفسي عليه من ليَ من بعـ
ـدُ ومن للنساء أو لليتامى؟
كان حرزًا للمسلمين وكهفًا
ورجاءً، ومعقلاً، ونظاما
فتولى ذاك النظامُ فأضحى
ركنُ عز الإسلام ميتًا رماما
قتل الله (مذحجًا) شر قتل
بأبي جعفر واصلوا غراما
فجزى الله والدي غرف الخلـ
ـد وأعطاه جنة وسلاما
فلقد كان وافيَ العهد للـ
ـه وبالحق والهدى قواما
نصر الدين واستقام على الحـ
ـق وأوفى بالبيعتين الإماما

• العلامة المهاجر

العلامة أحمد بن موسى الطبري

هو علامة الشيعة الفقيه الرباني الراجح أبو الحسين أحمد بن موسى الطبري؛ شيخ الإسلام، وعماد العدل والتوحيد، وحافظ الزيدية في عصره.

خرج رضي الله عنه من طبرستان إلى اليمن ضمن جماعة من الطبريين؛ لغرضِ الجهاد بين يدي الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهما السلام.

وقد همّ بعد وفاة الإمام الهادي وولديه عليهم السلام بالرجوع من اليمن إلى بلاده «طبرستان»؛ إذ كانت دار آبائه ومنزل قومه، وبها نشأ؛ فهبط تهامة، يريد الاستعانة على سفره بنائل من سلطان زبيد، وهو يومئذٍ الحسين بن سلامة مولى آل زياد، فلما قدم تلك البلاد أمسى ليلة من لياليه في بعض دورها، فرأى في نومه كأن الهادي إلى الحق عليه السلام قد وقف عليه يقول له: «يا أبا الحسين، تخرجُ وتترك التعليم بأصول الدين باليمن؟ اتق الله، ودع عنك هذا».

فانتبه رضوان الله عليه مذعورًا لذلك، وكرّ راجعًا إلى صنعاء وصعدة وأعمالها؛ ولم يتفق بملك زبيد لإضرابه عن السفر.

قال رحمه الله: فلما رجعت فكرت في الإقامة باليمن فرأيت أربعة: أسدًا، وذئبًا، وثعلبًا، وشاةً، فتفكرت في أثبتهم، فوجدته الأسد، فكان أحبهم إليّ فنزلت صنعاء، وجاورت ابن الضحاك، فقال لي: ادع إلى مذهبك، وأظهر حبّ أهل بيت نبيئك صلى الله عليه وعليهم، وتكلّم بما تريد، ولا تخف من هذه العامّة.

فدخل جامع صنعاء، وتكلّم، ودعا إلى مذهب الهادي إلى الحق فاستجيب له، ولم يلبث أن صار له حزبٌ وشيعة، يصلي بهم في المسجد.

ولقد كان له رضوان الله عليه من العناية بإحياء الدين باليمن أضعاف ما كان منه في حياة الهادي وولديه المرتضى والناصر عليهما السلام، وبينه وبين علماء المذاهب مراجعات ومناظرات عدة..

وكان له رضوان الله عليه من مكارم الأخلاق وحسن التعامل ولين الجانب، ما يجلّ مقامه في النفوس، ويعظم وصفه على الألسن؛ ومن ذلك ما

روي أنه رضوان الله عليه كان له جار من اليهود بصنعاء، وكان داره رحمه الله بقرب من مسجده المعروف بالطبري اليوم؛ بالسّائلة عند سمرة غربي صنعاء، وكان سطح الدار لذلك اليهودي، وكان لأبي الحسين منزل تحت ذلك السطح، وكان فيه خرق يتغوّط فيه اليهودي، ويبول هو وأولاده، فأضرّ ذلك بأبي الحسين، وعسر عليه التحول في ذلك الحال، فأمر من فعل له في ذلك الخرق كهيئة القصب وجعل بعضها فوق بعض إلى ذلك الفتح المفتوح، ثم أمر بها فجصصت وأحكمت، فكان يقع ما يتغوطونه في ذلك القصب، فاتفق أن أبا الحسين رحمه الله مرض فدخل جيرانه وأصحابه يعودونه، وكان اليهودي المذكور ممن دخل، فرأوا ذلك القصب فأنكروه، فسألوه عن ذلك، فقال: ما هو إلا خير، كان هناك خرق فربّما مرّ به صبي فيكون فيه شيء، فلمّا سمع ذلك اليهودي فكر في نفسه، وقال: ما هذا الاصطبار إلا عن دين صحيح، وما هذه إلا أخلاق الأنبياء، وآلُ الله، فأسلم، وحسن إسلامه رحمه الله.

وله في دعائه إلى الله قصصٌ تظهر همّته العالية، وتفانيه في إبلاغ الحجة، وصبره وحلمه الشديدين في سبيل ذلك، فمن ذلك مناظرته النّقَوِيّ عبدالله بن كليب أو ابنه سلمة؛ في القَدَرِ، فإنه لما أحصر النّقَوِيُّ تفل بوجه أبي الحسين الطبري، بعد أن ظهر للعامة إحصار النّقَوِيّ، ولم يبق إلا الجهالة، فلاذ بها، فبزق إلى وجهه، فضحك أبو الحسين وقال: أجمع العلماء أن الريق طاهر.

وحكي أنه كان بناحية (أثر) من الخشب رجلٌ تاب على يده - رحمه الله - وكان عاميًا جاهلًا، فمكث أبو الحسين يداريه، ويرفق به لئلا يظهر له من أمر الدين شيء يشق عليه، فيرجع على عقبيه، ويعصي ربّه، فاتفق أنه أصاب الناسَ مجاعةٌ عمّت الناس، وكان الخشبي المذكور من أهل النّعم والثروة، فرزق الله أهلَ جهته ثمرة صالحة وزراعة ثقيلة راحت بها حالهم، والناس في الشدة، فأتى هذا الرجل أبا الحسين وقد رأى غلاء الطعام، وقد غلبه شُحُّ النفس وثقل عليه إخراج زكاة البر من البر، فقال: يا أبا الحسين هل تكون زكاة البر من الشعير؟ ففطن أبو الحسين فقال: نعم، فأخرج مكان مكيال من البر مكيالًا من الشعير ودفعه إلى المساكين، فحييَ به بشر كثير من ضعفاء المسلمين ذلك الوقت، فأنكر أصحاب الحسين ذلك عليه، وأتوه في ذلك فقال: يا قوم، هذا شيء قلته عن رأي لا عن شرع، غلب على ظني أني لو قلت لا يجزي على البر إلا البر ثَقُل عليه، فأخل به وبخل، وإذا بخل قالت له نفسه قد عصيت الله في واحدة ومن عصاه في واحدة كمن عصاه في أكثر، فيترك الصلاة ويرتكب المعاصي، وإذا ثبت على الديانة فسيتعلم - إن شاء الله - ويخلص

نفسه، ونظرت إلى المساكين، فعلمت أن الشعير أنفع لهم من العدم، فكان الأمر كما قال أبو الحسين، صلح ذلك الرجل، واستدرك أمره، وعوّض الزكاة برًا، ورسخ في قلبه حُبُّ الله، وصلحت حاله.

وحكي عنه - رضي الله عنه - أنه كان له جار بصنعاء يشرب الخمر ويؤوي شُرّابها، وكان يخفى على أبي الحسين أمره في أوائله، ثم إنه بلغ أبا الحسين أنه قد جمع جماعة من الفسقة لشرب الخمر، فذهب أبو الحسين يستكشف الحال، وليؤدي ما يجب لله، فقضى نظره بأخذ كبش وقصد ذلك الجار إلى بيته، فقرع الباب، فخرج إليه الجار وهو لا يظنه جاء إلا يريد الإزالة، فقابله أبو الحسين بالمعروف من خُلقِه، وقال: بلغني أن عندك ضيفًا والجار مسؤول عن جاره، فهذا كبش استعن به، فاستحيا الرجل، وخرج، فلما أصبح نحا ما في منزله، وغسل ثيابه، واستغفر، وأناب.

وحكي عنه - رحمه الله - أنه كان واسع الجاه مقبول الشفاعة، وكان بصنعاء من ضعفاء المسلمين ومساكينهم خلق كثير، ومن الأشراف أرامل وأيتام، فكان يتكسب عليهم، وكان له إخوان باليمن يرون له حقًا عليهم، فكان يزورهم ويلتمس للضعفاء المذكورين شيئًا منهم، فخرج في بعض السنين إلى إخوانه باليمن فاستماحهم للمساكين، ففعلوا وعاد بأكسية وأمتعة ونقد، ورجع إلى صنعاء، فلما وصل إلى طرف الحمراء؛ وهو الجبل الذي يتصل بجبل نقم المطل على صنعاء مما يلي علب من أرض (الأبناء)؛ فخرج عليه لصوص، فأخذوا ما معه، فلما حازوه قال: يا وجوه العرب؛ هل لكم في رأي من المروءة والكرم، قالوا: وما هو؟ فقال: قد صرت كما ترون في أيديكم، وما أحد يتوهم أنكم تتركوني إلا تكرمًا منكم عليّ، وأنا قد جئت من بُعدٍ أهوي بهذه العروض لمساكين خلفي أعينُهم ممدودة إليه، فهل لكم في رأي تحوزون به شرف الذكر والشكر مني ما بقيت، وذلك أن تجعلوني بمثابة واحد منكم أحوز سهمًا أعود به على من خلفي، فيثيبكم الله، وتأخذون هذا حلالًا، فرقوا لكلامه، وقسموا له نصف المتاع، وكانوا قد تركوا ثيابه لم يسلبوها عنه تكرمًا منهم واستحياء لجلاله وهيبته، وكان تحت ثيابه وعاء دنانير، فأخرج إليهم الدنانير بعد أن قسموا له النصف؛ وقال: قد بقي نصيبكم من هذه الدنانير، فأعجبهم ذلك، ثم بايعهم بنصيبه من الدنانير في نصيبهم من العروض والثياب التي هي أنفع للمساكين، فبقي عليه من ثمنها ثلاثون دينارًا، فقال: لو تبعني أحدكم لهذه البقية لم يرَ إلا خيرًا، فقد لزمني لكم ذمام الصحبة والمعرفة، فقال أحدهم: هذا شيخ لا يأتي منه إلا خير، فسار معه حتى دخل صنعاء فتلقى الشيخ أبا الحسين أصحابُه وسلموا عليه، ثم استلف تلك الدنانير، ثم عمد إلى كبش فأمر بذبحه، فذبح وطبخ وأرسل بطعام، وذلك اللحم والدنانير مع ذلك الرجل، وقال: هذا الطعام لأصحابك لأني أظن عهدهم بالطعام بعيد، فلمّا وصل ذلك الرجل إلى أصحابه رقّتْ قلوبُهم، وخشعت، وأناب منهم من أناب، وصار أولئك من أصحاب الطبري - رحمه الله -.

وفي ومضات سيرة العلامة الكبير أحمد بن موسى الطبري الكثير من العبر والدروس النافعة، وله عدد من المؤلفات المفيدة؛ بعضها مطبوع.. وقد صدر بسيرة العلم والجهاد صفحات شديد البياض ناصعة المعان تهوي إليها الأفئدة وتتلقفها القلوب بكل احترام وتقدير.

الإمام

الهادي

إلى الحق

وفاته عليه السلام

وفاته عليه السلام

توفي الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام يومَ الأحدِ لعشرٍ بقين من ذي الحجة سنةَ ٢٩٨هـ، ودفن عليه السلام يوم الاثنين قبل الزوال، وعمره ٥٣ سنة، بعد أن حكم اليمن ما يقارب ١٥ عامًا، بورع وزهد وعدل لم يشهدْ له اليمنيون نظيرًا، وقد غادر الدنيا ولم يخلف فيها دينارًا ولا درهمًا ولا عقارًا ولا أثاثًا إلا سيرة عطرة غطت البقاع، وتضوّعت لمسكها الأصقاع، فسلام الله عليه من إمامِ هدى ورائد عدالة ورحمةُ الله وبركاته.

- **تلقى الناس لخبر وفاته عليه السلام**

لما شاع نبأُ موت الإمام الهادي عليه السلام جأر الناس بالبكاء والنحيب، واجتمعوا إلى باب داره، فخرج إليهم ولده المرتضى، فوعظهم وذكّرهم بالله سبحانه، وعزّاهم وعزّوه فيه؛ وتبارى الشعراء والخطباء في رثائه، ومنهم الشاعر إبراهيم بن الجدوبة، قال في مطلع قصيدة:

وَهَتْ عضُدُ الإسلام وانْدقّ كاهلهْ ... وغالت بنيه في الأنامِ غوائلُهْ

ومن المراثي في الإمام الهادي عليه السلام:

دموعٌ مرتها واستهل غزيرُها ... حراراتُ ثُكلٍ ليس يخبو سعيرُها

هو الثُّكْلُ لا ثُكْلُ البنينَ وإنّما ... يعفّى على ثكل البنين شهورُها

وثكـلُ أميـر المـؤمنيـن مجـددٌ
على الأرض مـا هبّت عليهـا دبورُها

ألا خـابـت الأيـام مـاذا تعاقبـت
علينـا بـه آصالهـا وبـكـورُهـا

برتنـا كمـا تُبْـرى القـداحُ بدَوّهـا
وكـرّ لنـا بالمصمئـل كرُورُهـا

لقـد ضُمّـن الهـادي إلى الحـق حفرةً
مطهـرةً طابـتْ وطـاب نشـورُها

فصـارت بُطـونُ الأرض تزهـو وطالما
زهـتْ بأميـر المؤمنيـن ظهُورُهـا

وكـانـت قلـوبُ المؤمنيـن بعدلـه
مطهـرةً طـولَ الحيـاة ودورُهـا

فقـد أصبحت مـن بعده اليـومَ إذ ثوى
مـطـهـرةً أمـواتُـهـا وقـبـورُهـا

وكان لأهـل الأرض فـي الأرض رحمةً
فلمـا تولّـى فاجأتهـم شـرورُها

أتخلـو قلـوبُ المؤمنيـن مـن الأسـى
وقد مـات يحيى بـنُ الحسـين أميرُها

وأصبحـت الدنيـا وأمّـةُ أحمـدٍ
مُـعـطّـلـةً أمـصَـارُها وثـغـورُهـا

• حزن الإمام الأطروش على رحيله

كانت تَرْبِطُ الإمام الناصر الأطروش بالإمام الهادي عليه السلام علاقةُ ودٍّ وإجلالٍ وتقديرٍ بالرغم مـن تباعد الأقطـار بينهما، فقد كان الإمـام الناصر يحُثُّ النّاس على نصرة الهادي عليه السـلام، ويقـول: «من يمكنه أن ينصره وقَرُبَ منه فنُصْرتُهُ واجبةٌ عليـه، ومن تَمَكّنَ من نصرتي وقَرُبَ مني فلينصرني».

ولقـد وقع خبر رحيل الإمام الهادي على قلب الإمام الناصر عليهما السـلام كالصاعقة، وحزن له حزنـًا عظيمًا، فقد جاء في تتمة المصابيح، ج١/ ص٥٠٧: «سـمعت أبـا محمد الزركاني رحمه الله يقـول: إنهم كانوا مع الناصر رضي الله عنه بالجيل قبل خروجه، فنُعِيَ إليه يحيى بن الحسـين عليه السلام؛ فبكى بنحِيْبٍ ونشِيْجٍ، ثم قال: اليوم انهَدّ ركن الإسلام».

• مكان الدفن

دُفِـنَ الإمام الهادي عليه السـلام بمدينة صعـدة عاصمة دولته، ومقرِّ إقامتـه، وكان دفْنُهُ جنوب مسـجده الذي كان قد أمر ببنائه، وكانت عمارته قد بلغت نصف قامة الرجل، وكان قد جَمّعَ فيه جمعةً واحدة؛ وقبرُه منذ ذلك الحين مشهور مزور، يقصده المئات بل الآلاف من المحبين الصادقين، بل لا تخلو ساعة على مدار العام من زائر؛ ولله درُّ القائل فيه وفي الإمام الناصر الأطروش عليهما السلام:

عـــرِّج عـلـى قـبـرٍ بـصـعـدةَ
وابـــكِ مــرمــوسًــا بـآمـل

واعـلــم بـأن المـقـتـدي بـهمـا
سـيـبـلـغ حيـث يـامـل

• كلمة قيلت عنه

عندما نستطلع سيرة الإمام الهادي، ونعرف تلك اللوحة الناصعة التي سطر بها أفق التاريخ الإسلامي، تتجلى لنا العدالة والسياسة والروح الإسلامية التي انتهجها الإمام الهادي منذ وطئت قدمه أرض اليمن، والتي عبر عنها بقوله مخاطبًا لهم: «والله لم يغب عنكم من رسول الله إلا شخصه إن شاء الله».

ويتراءى لنا ذلك المجتمع المثالي الذي كونه الإمام الهادي والمتاعب التي واجهها لتكوينه حتى أصبح مجتمعًا صادقًا متماسكًا متكاملًا، ونعرف ذلك السلوك القويم الذي عامل به الإمام أفراد أمته، والعدالة الاجتماعية التي زرعها في أوساطهم، ويتمثل لنا بوضوح مرة أخرى صورة ذلك المجتمع المثالي الذي أسسه رسول الله وأنشأ به دولة الإسلام.

إن كل هذا هو الذي جعل القلوب تتعلق به، وتقبل عليه، وأبقت اسمه خالدًا مخلدًا، ورفعت اسمه كأكبر مصلح في سماء التاريخ، وأضفت عليه هالة من الحب والتقدير في قلب كل مؤمن إلى هذا اليوم وإلى الأبد.

٦
صفر

ذكرى قدوم الإمام الهادي عليه السلام
إلى اليمن

من إصدارات شبكة الثقلين الثقافية

شبكة الثقلين الثقافية
Althaqaleen Cultural Network

١٤٤٤هـ | ٢٠٢٢م